الإسلام في السنغال

أبحاث ودراسات حول انتشار الإسلام والفكر الإسلامي في إفريقيا وتصوير حال المسلمين في إفريقيا الغربية

الشيخ أحمد التيجاني سي

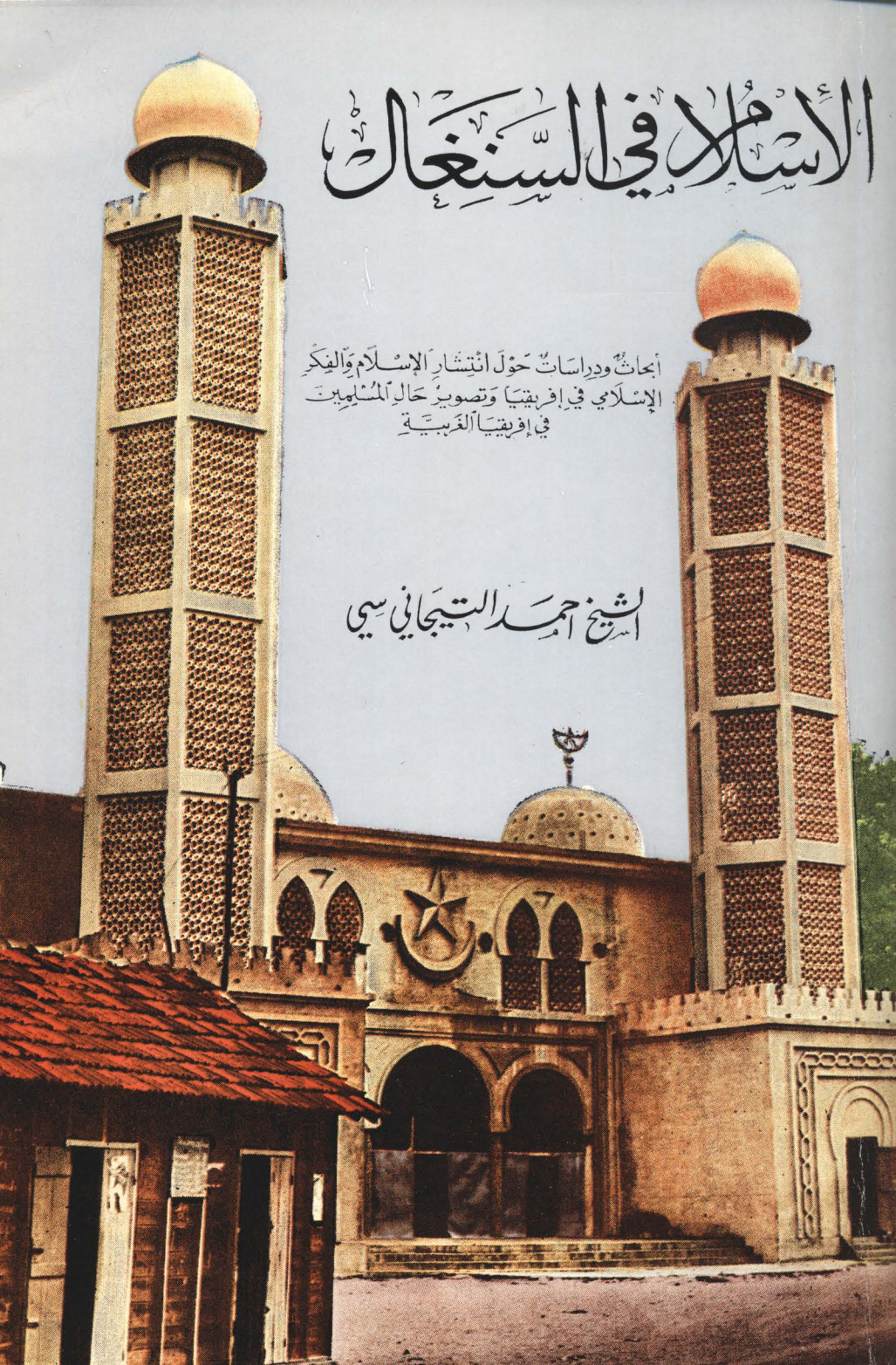

الإسلام في السنغال

أبحاث ودراسات حول انتشار الإسلام والفكر
الإسلامي في إفريقيا وتصوير حال المسلمين
في إفريقيا الغربية

الشيخ أحمد التيجاني سيي

al-maktabeh
مكتبة
المهتدين

منشورات دار مكتبة الحياة - بيروت

مؤلف الكتاب سنغالي حميم بل هو زعيم من زعماء اكبر طائفة إسلامية في أفريقيا - تعد بالملايين . ذو ثقافة واسعة يجيد العربية التي تلقاها عن والده المرحوم خليفة التيجانيين الإمام الكبير أبي بكر سي . سر الإمام الكبير الحاج مالك سي - كما يجيد الإفرنسية كأهلها .

كان سفيرا في القاهرة . ولكنه في الوقت الذي نحن فيه يعمل في كل ما يعود لصالح المسلمين بل ولصالح الانسانية يرتبط بصداقة وثيقة مع المسؤلين العرب ... وهم يقدرونه لحسن فهمه وطيبه وسياسته الحكيمة .

وكانت له رحلات في البلاد الإسلامية ليفيد صداقة جديدة لإخواننا السنغاليين والإفريقيين وليعرض وضعهم واستعداداتهم على الزعماء في المشرق .

وليربط بينهم برابط المحبة المبنية على الفهم والعلم والحقيقة .

أسلوبه سهل ولكنه جذاب ، فيه قدرة وبراعة ووضوح ، يلذ القاريء ويجتذبه ويفيده .

مقدمة

باسم القرآن الكريم الذي لا ينطق عن الهوى وباسم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم الذي جُعلت الارض كلها مركزاً لدعوته الكريمة وموضع طهارة لهؤلاء الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ، كنا ولم نزل نشجع اخانا وصديقنا الشيخ احمد التيجاني سي على نشر المخطوطات التي وجدناها عنده والتي تهدف الى تمكين المسلمين في افريقيا من فهم بعض حقائق الاسلام ومن المساهمة في تنظيم الحركة العالمية الاسلامية المعتدلة ، بل ومن الانضمام الى هذا النادي العلمي والثقافي والادبي الانساني الذي رأينا ابوابه مفتوحة على كل منطقة من المناطق الشرقية والغربية .

واخيراً بشرنا الشيخ احمد بانه اتفق مع صاحب دار مكتبة الحياة للنشر والطباعة السيد يحيي الخليل لتحقيق هذا الغرض ولإنجاز هذه المهمة الخيرة ... وما احوج الجنس البشري الى مثل هذا النضال الفكري ضد النظريات الفاسدة ! لا سيما والشيخ احمد تعاون مع رجال الخير في المشرق لتنظيم مكتب علمي وثقافي يبقى همزة الوصل بين الجانبين العربي والافريقي بل وبين الحضارتين الشرقية والغربية وعلى الله قصد السبيل . !

www.al-maktabeh.com
مكتبة المهتدين

الاسلام دين تطور

إنه لا يُذْكَرُ الاسلام في بعض هذه النّواحي إلاّ ويتبادَرُ إلى الذهن أنّه نوعٌ من نَوافل الخيرات ؛ وأنّهُ هو الرَّنة والأنّة عندما يحتاجُ المسلم إلى تمحيص ما في قلبه من الحُب ..

ولكنّ الإسلامَ أعزُّ وأشمل من أن يكون رنّة وأنّة فحسب؛ بل لم يكن الاسلام إلاّ حادثــةً قطعيةً تربط أطراف تاريخ الكون عامّةً وأطراف التاريــخ البشريِّ خاصَّة ، تربط هذه الأطراف بعضهــا ببعض : تربط المُشاهَدات بالمغيّبات ، وتربط الأمم الغابرة بالأمم الحاضرة ؛ وتربط الحضارات البائدة بالحضارات السائدة اليوم . . . كما تربط أطراف السموِّ الإنساني كل طرف فيها بطرف : تربط الغِنى بالإنفاق والعفّة، وتربطُ الفقر بالكسْب وا لأكلِ بالمعروف ، وتربطُ العزَّةَ والشرفَ بحمل النقائص ...

وكلُّ ذلك ليحيا المسلمُ وكأنهُ ثِقَةُ اللهِ في الإنسانية ؛ هذه الثقة التي تَبْدو لنا تباشيرُها ؛ في هذه الآية المحكمَة :

بل الإنسان على نفسهِ بصيره ولو ألقى معاذيره ، [1]

وفي هذه الآية الضامنة :

---

(١) ١٥/٧٥

«يعتبر المؤلف سور القرآن الكريم متسلسلة ابتداء من سورة الفاتحة برقم واحد وانتهاء بسورة (الناس) برقم (١١٤) . وهنا الرقم الاول يشير الى رقم السورة المتسلسل والرقم الثاني يشير الى رقم الآية في السورة نفسها »

إنا هديْناه السبيلَ ، إمّا شاكراً وإمّا كفوراً [١]

هذه الثقة التي أصبحت الحجة الأولى في تمكُّن الإنسان من إدراك ما في الحياة من الأسرار والمعاني إمّا بآلات حسيّة وإمّا بآلات معنويّة ؛

هذه الثقة التي تَرْجُو من الإنسان أن يمثل الحكمةَ العليا في سبيل توحيد العناصر وفي سبيل إرجاع فوائد هذه العناصر وكوارثها إلى مركز الإيجاد والتكوين ؛ بل إلى رُوح الحقائق الكُبْرى الموجودةِ في خبَايا الرحمان الرحيم

إن هذه الحادثةَ القطعيّة التي تُعين باسم الإسلام تنطِقُ أوّلَ كل شيء بهذه الرَّوابط الحكيمة وتنطق بانّها سرُّ الحياة وأنّها عائدة إلى الاعتراف بالمغيّبات ولا شك أن كلمة الاعتراف التي يُبْدِلها القرآنُ بكلمة الإيمان تشملُ الإدراك والحركةَ وتشملُ التقاديرَ الفطريّة والمنطقيّة ؛ بل إنها تنطق بكلّ هذه الاتصالاتِ المستمرة التي تجعل الكون وتجعل الإنسان في الكون عنواناً

واعجَب عنوان من المُغيّبات ؛ يقول القرآن الكريم في هذا الموقف :

الحمد لله فاطر السموات والأرض جاعل الملائكة رُسُلاً أولي أجنحة مثنى وثلاث ورباع يزيدُ في الخلق ما يشاء ان اللهَ على كلِ شيء قدير [٢]

ويقول :

إنَّ اللهَ يَعلم غيْبَ السمواتِ والأرض والله بصير بما تعملون [٣]

ويقول :

إن الله يمسك السموات والأرض ان تزولاَ ولَئن زالتَا ان أَمْسَكَهُما من أحدٍ من بعده انه كان حليماً غفورا [٤]

ويقول :

والله خلقكم من تُراب ثم من نطفة ثم جعلكُم أزواجاً . وما تحملُ من أنثى ولا تضعُ إلاّ بعلمهِ . وما يُعمّر من معمّر ولا ينقص من عُمُره إلاّ

---

(١) ٣/٧٦ (٢) ١/٣٥ (٣) ١٨/٤٩ (٤) ٣١/٣٥

في كتاب. إنَّ ذلك على الله يسير . وما يستوي البحران هذا عذب فراتٌ سائغ شرابُهُ وهذا ملح أجاج ومن كلٍ تأكلُون لحماً طرياً وتستخرجون حليةً تلبَسُونها وترى الفُلك فيه مواخر لتبتغوا من فضلِه ولعلكم تشكرون . يولجُ الليلَ في النهار ويولجُ النهارَ في الّليل وسخّر الشَمْس والقمر كلٌ يَجْري لأجل مَسمّى ذلكمُ اللهُ ربكم له الملك والذين تدْعُون من دونهِ ما يمْلِكُون من قِطْمير (١)

ويقول :

وقُلِ الحمدُ لله الذي لم يتخذْ ولداً ولم يكُن له شريكٌ في الملكِ ولم يكُن له وليٌّ من الذلّ وكبّره تكبيراً .

ولكنَّ هذه الحادثةَ تُعِدُّ لكل فريقٍ من الناس ما تعِدُّ له من علوم ومعارف ، من خصائص وامتيازات ؛ فريق « يرى أَنها وحي وإسراءٌ وهجْرةٌ وغزوات ؛ وفريقٌ يرى فيها مَعْنىً من فتوحاتٍ ومُهادَنات ومُفَاوَضات ؛ وفريقٌ لا يرى إلاَّ أنها ازدهارٌ في علوم وحياة بمخترعات وخطواتٌ إلى عصر من نور ؛ وفريقٌ يجد انها طُرقٌ وأحزابٌ وعزائمَ وأَنها فرارٌ من شك ووسوسة ، واجتماعٌ باسم غِناءٍ وترتيل.ثم لا إنكار إلاَّ مَا يمجُّه الذوْق وتأباه الفِطرة ويكرهه العقل ويردُّه ؛ لتصبحَ هذه العلوم وهذه المعارف ولتظل هذه الخصائص والامتيازاتُ خيرَ ما يكون من التراث الذي يتزوَّد بهِ العاملون طوال آلاف من قرون ، والّذي يسم هؤلاء العاملين بطابعٍ من شخصيّة مُحمد صلى الله عليه وسلم : ولو كانوا تحت ضغط الاستعمارِ ولو كانوا تحت استعباد أجنبي

يقول القرآن الكريم في ذلك :

وعد الله الذين آمنوا منكُم وعملوا الصالحات ليستخلفنّهم في الأرض كما

---

(١) ٣٥/١١،١٢،١٣ .　　(٢) ١٧/١١١ .

استخلف الذين من قبلهم وليمكنَنَّ لهم دينَهم الذي ارتضى لهم وليبدلنّهم من بعد خوفِهم أمناً يعبدونني لا يشركون بي شيئاً . ومن كفرَ بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون

هكذا تلك الحادثة تربط الإنسانَ بالعَقيدة ، والعقيدة بالسياسة ، وتربط السياسة بالحضارة ثم تضعُ حولَها من الحُدود والسدود مالا يخرج عنه ولا يتجاوزه الانسان وهكذا تلك الحادثة تجعل المغيّبات مركز الايحاء والتكوين . وتجعل الموجودات والكائنات كلّها تحت تَصرُّف هذه المغيّبات . وأنه مهما تطورت الآراء ومهما اجتهد الإنسان ، وجَدَّ في تحويل الآراء إلى قُوى ماديّة فعّالة

فيظهر لنا من ذلك إن الجهل بهذه الحقيقة ربّما أدّى إلى تغيير وجهِ الكون أو إلى إتّهام المغيّبات بالظلم ، فترجع المعارف إلى العادات وتعودُ الاختصاصات إلى الأباطيل ويُرَدُّ الإنسانُ نفسه إلى أسفل ما يكون من الانحطاط ... ولو عاش باسم العقيدة ، أو باسم السياسة أو باسم الحضارات.يقول الله عز وجل رفضاً لهذه المسئولية :

وما اللهُ يُريد ظلماً للعباد [1]

ويقول :

وأن الله ليس بظلام للعبيد [2]

فإن هذا التراث الذي يعدُّه الحكماء أعجوبة عالمية أوسع من أن يكون في حيّز أية طائفة من الطوائف أو في حيّز أية أمة من الأمم .

ولكنه بعثة من بعثات المغيّبات الميمونة وإرادة من إرَاداتها المحمودة — ليكون الأمر كُلّه لله جل جلاله وتَقدست أسماؤه ولا شك أن الأمر كُلّه لله بسابق المشيئة .

(١ ٣١/٤٩ .
(٢) ٥٢/٨ ١٠/٢٢ .

وإذا أردنا أن نفهم عنِ الاسْلام روحَ التعاليم الغيبية التي يتوسّل بهـا الإنسان إلى أداء الأمانات ما ظهر منها وما بطن ، والتي يحتاجُ دائماً إلى السّيْرِ وراءها للترجَمةِ عن الحوادثِ ...

فإنّا ولا شك نعترف أولَ كل شيء ، بعدم حريّةِ الإنسان تحت تصرُّفات هذه التعاليم أو بلا إمكانية سيطرتهِ على تنزُّلاتِ الحوادث ...

وكان العلم في ذلك وهو صفة من صفات الغيب ووديعة من ودائعه ، لافضيلة من فضائل الإنسان .. وذلك على حدّ ما قال الكتاب العزيز في هذهالآية

إنا نحن نزّلنا الذكر وإنّا لهُ لحافظون (١)

بما أنّ العقل البشري هوالذييرشدالانسان في التعبيرعن حقائق العلم ليس إلاّ أداةً من ملايين الأدوات التي يستعملها الغيب لحل ملايين الألغاز التي لا تسع هذه الحياة المعقّدة لفهمها ولا لتحصيل الحل لها ...

وكان سيرُ الإنسان وراء هذه التعاليم للترجمة عن الحوادث بل ولتوجيهها وللشهادة عليها هو معنى هذه الكلمة المعبّر عنها بالتقدّم أو بالتطوّر أو بالسّير وراء مقتضيات العصر والتي تنحصر كلُّ معانيها في هذه الآية الكريمة الموجودة في القرآن الكريم :

هل أتى على الإنسان حينٌ من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً إنّا خلقنا الإنسان مِنْ نطفة أمشاجٍ نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً

وذلك ليُطبّق على الإنسان القانون التطوري الذي لا تحيا بقعة من الأرض ولا تحيا كل ما عليها إلاّ وِفق مقتضيات هذا القانون ...

وبما أنّ الإنسان الذي يختار العزلة والعطلة ويختار السير إلى وراء،لايكون سيره هذا من تعاليم الغيب وليس هو من الغيب في شيء ..

يقول في ذلك الإمام الحسني الفاطميّ ، السيد احمد التجاني بكلمة حازمة :

---

(١) ٩/١٥ .

« بسير زمانك سِرْ ! » فكأنه يريد بذلك أن التربية والتربية كلها تنحصر في سير الإنسان بسير الزمان ... وأن العزلة والعطلة والتأخر إنكارٌ لكيانِ الأمّة ولسعادتها المنشودة في الكتب المقدسة ؛ يقول القرآن الكريم في ذلك :

ولو أنّ أهل القرى آمنوا واتقوْا لفتحنا عليهم بركاتٍ من السماء [1]

فيفهم الإنسان من الآية معنى العدل والإشفاق ويفهم عنها معنى التقدم والتطور ... وأن الخير كله في إغراق الأوقات في الاستكشاف والطلب ، بل في تحقيق الحياةِ بالعمل ....

هذا وإن التطور في الإسلام عبارةٌ عمّا عليه التاريخ والتاريخ البشري بخاصّةٍ من الاحتفاظ بالذكر ومداولة هذا الذكر بين الأمم وبين العصور المختلفة — ليظهر للإنسان أن هناك مصدراً من العلم لم يكن ليُحيط به إلاّ العقل المُجرّد ، وأن هناك نوعاً من الإرادة لم يكن من طاقة الإنسان أن يسعى دونها ولا أن يعمل عنها ما دام نفساً وجوارح ... وأن هناك صورة من القدرة الخلاّقة التي اذا شاءت أن ترى في الانسان خليفة في الأرض إنما شاءت أن يكون ذلك بانقياد هذ الإنسان إلى تطبيق هذه المبادىء التعليمية التي ترى في الله الخلاّقُ العليم وترى فيه فاطر العوالم الذي لا يئوده حِفْظ ما بين العلوية منها والسفلية...

بل إنما شاءت هذه القدرة الخلاقة أن يكون ذلك بتطوع الإنسان إلى الأسباب ، أسباب العلم ثم إلى أسباب التنظيم . . . فيكون في هذا المستوى خالقاً بخلق الله ومنظماً تحت طوع تنظيمه جل جلاله

وكل ذلك ليكون الخلق شيئاً ويكون البشر شيئاً آخر ... بل وليبقى بينهما من سرّ الصلة ما يجعل التاريخ وكأنه حكاية عن تحقيق هذه الوصلة بين هذا وذاك

وهل التاريخ إلا أقوى ما يدل على ان هناك سلطة غيبية لا تكاد تتحقق معها حرية الإنسان ... هذه السلطة التي يقول القرآن الكريم فيها :

---

(١) ٧/٩٦.

إنا نحن نرث الأرض ومن عليها وإلينا يرجعون [١]

وهل الوراثة هنا إلاّ في معناها الحقيقي الذي لم يكن الإنسان إلى جانبها إلا كقدح راكب ؟

وهل التطور أمام هذه الوراثة إلاّ بعض هذه البينات التي يعتمد عليها التاريخ عندما يعترف بأن العلم صفة من صفات الغيب وأنه بنسبته إلى الغيب شيء ابدي.

وهل التطور في مستوى الإنسان إلاّ روحُ الهداية في طريق العمل وفي كونه خليفة لله في الأرض — وما دامت الخلافة هنا تعود إلى الكسب وتعود إلى التنظيم ؛ ما دامت الخلافة هنا تدعو إلى الاصلاح ... وإلى تزويد الأرض بالسعادة ... ولئلا يخرج التاريخ عن حده الطبيعي ، حد الاحتفاظ بالذكر ومداولة هذا الذكر بين الأمم المختلفة ... وليبقى استباق الأمم إلى الخيرات هو الضمان الوحيد في تخليد الحياة البشرية — يقول القرآن الكريم في ذلك :

فاستبقوا الخيراتِ أين ما تكونوا يأت بكم الله جميعاً [٢]

وشتان ما بين الاستباق إلى الخيرات والتكاثر في الأموال ...

ويقول رفضاً لهذا الأخير :

ألهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر [٣] .

على أن الاستباق إلى الخيرات نوع من التكافؤ بين الأمم عندما تدعو الفنون وتدعو العلوم إلى التعاون والتعارف وعندما يحتكّ الدماغ بالدماغ وتميل الإرادة نحو الإرادة ... وكان كما قال القرآن الكريم حكاية عن نبي الله سليمان عندما أراد أن يقابل الملكة بلقيس ..

قيل لها أدخلي الصرح فلما رأته حسبته لجةً وكشفت عن ساقيها قال انه صرح ممرّد من قوارير [٤] .

فظهر من ذلك سر التكافؤ ... وأن جنس التطور بجنس الحضارة التي

---

(١) ١٩/٤٠ (٢) ٢/١٤٨ (٣) ١٠٢/٢ (٤) ٢٧/٤٤ .

تكَوّن لها إطاراً وخير إطار . وأن من الضروري تفاعل الحضارتين عندما تدعو إلى ذلك مقتضيات سير العصر ... بل يظهر من ذلك أن العزلة أو العطلة لم يكن من شأنها أن تقضي على الحوادث، بل من شأن الحوادث عندما تتنزل أن تقضي على العُزلة . . . وهذا ليبقى الإنسان وهو نفس القيمة للتاريخ وليبقى التاريخ وهو موضع الكسب والإصلاح للإنسان ثم لا حرج حينئذ في حكم الغيب الذي يقول :

يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر [1]

ومهما بلغت التعاليم إلى حد التربية فإنما اليُسْرُ هو الغاية في ذلك لا العسر وهل التطاول إلى الكسب إلا أقربُ ما يكون من الراحة ؟ وهل الراحة الحقيقيّة إلاّ في عمل مفيد ؟

يقول القرآن الكريم مُخاطباً الإنسان الأوّل تشجيعاً له على مجابهةالحوادث :
إن مع العسر يسراً إنّ مع العسر يسراً ! فإذا فرغتفانصبوإلى ربكفارغب[2]

يقول الإنسان الأول في ذلك « لن يغلب العسرُ يسرين » بل يقول :
أعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً.ويقول أيضاً في هذا المعنى :
إن من حسن إسلام المرء تركه مالا يعنيه ....
نعم ! يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ... ولا يكلف نفساً إلاّ وسعها ، لأنه يعلم طبيعة الإنسان ويعلم ما توسوس به نفسه وهو أقرب إليه من حبل الوريد ...
نعم لا عذر ولا عزلة ولا عطلة – يقول محمد (صلعم)في ذلك :
«فاتركوني ما تركتكم » لاسيما وقد تبينّ الحلال والحرام ... وأما غير ذلك فاتفاقيات ومعاملات بين المسلمين . «ولا تجتمع أمتي على ضلال ! »

---

(١) ١٨٥/٢ (٢) ٩٤/٥،٦،٧،٨ .

وهذا محمد (صلى الله عليه وسلم) يعطي التاريخ حق التاريخ، ويعطي التطوّر حق التطوّر، ويشير بذلك كله إلى أن الحياة ماض وحاضر ومستقبل وأن بين كل من هذا وذاك مقتضيات وضروريات وأن الإنسان هو المسئول الوحيد أمام الترجمة عن الحوادث وان التعاليم الغيبية لا تخلو من التعاضد والتعاون مع الإنسان عندما يحتاج إلى هذه الترجمة وأن جهل التاريخ إنكار لرسالة الإنسان وغض من قيمة الحياة ... إن كانت هناك قيمة مع الجهل ...

وهذا محمد (صلى الله عليه وسلم) يعترف بقانون التجدد الذي يتميز به سير العصر ... والذي يحمل الحكمة اليونانية على أن تصف الحياة بالخلدِ بل والذي يقول من أجله أمير الشعراء :

الله أكبر كم في الفتح من عجب يا خالد الترك جدّد خالد العـــرب

ولا أرى انساناً أعرف بروح التجدد من محمد (صلى الله عليه وسلم) ...

فإذا ألقينا النظر إلى وراء واكتشفنا كل ما في التاريخ من التقلباتِ ... فلا بدّ أن يظهر لنا هذا السر الذي يربط بين طرفي هذا التاريخ العجيب ... وذلك من الاسكندر الأول إلى نبي الله محمد القرشي الهاشمي ... فالأول نطق قبل كل احد بضرورة ارتباط الشرق بالغرب لئلا تؤدي الحروبُ بينهما إلى القضاء على أسباب التجدد ... ولو أن الحروب مما لايهدم هذه الأسباب!

وهكذا محمد (صلى الله عليه وسلم) لم يزل يرفع الحواجز بين الطوائف وبين الأمم وبين الأديان ... ويذكر في ذلك أن الأرض لله وأن العاقبة للتقوى.. ممّا جعل الإسلام يتجدّد مع العصر ويتطور مع سير الطوائف والأمم والأديان إلى أن بلغت به الحضارة إلى الذروة التي ما بعدها من ذروة ...

وكانت الروابط الزوجية التي ارتضى بها محمد (صلى الله عليه وسلم) بينه وبين مارية القبطية وارتضى بها بعده شاب الأسرة الشريفة الإمام الحسين بينه وبين الأميرة بيبي شاربانو بنت آخر ملك من ملوك بني ساسان كان كل

ذلك من خير ما مكّن للإسلام من التمتع بهذه الحياة العجيبة التي كلّها علم وكلها أدب وكلها فن وكلها خُلُق وجمال ! بل كلها دين وحكمة !....

فكانت بغداد في وقت ما عاصمة الاسلام تحت الدولة العباسية وتحت رقابة المنصور بالله – أمير المؤمنين !!

بل كانت حينذاك عاصمة اليهودية والمسيحية وعاصمة المتطوّرين من جميع بقاع الأرض ... بعدما خطا الإسلام هذه الخطوة الواسعة البعيدة عن مدينة الرسول إلى نواحي الكوفة ومنها إلى دمشق عاصمة الأمويين ومن دمشق إلى بغداد ..

وكل هذا ليكون التطور قبل كل شيء كدافع من دوافع الإرادة الغيبية ... هذه الإرادة التي لا تفرق بين الشرقي او الغربي ولا بين الأبيض والأسود ولا بين اليهودي والمسيحي ولكنها توجـــه في سبيل سيره إلى الكمال . هذا الإنسان الذي يبني ببناء السماء ويخلق بخلق السماء ويصلح بإصلاح السماء وينظم بتنظيم السماء ... بل يحيا فوق ذلك تلك الحياة المثاليّة التي لا سقوط تيها ولا رذيلة والتي تسع الأرض بالخلق وتسعها بأدوات نافعة مفيدة ؛ بل فسعها بإغراق الأوقات في العمل وتخليد العمل بالإتقان والراحة ... ثم لا لغوٌ بعدهما ولا تأثيم

ومن هنا يفهم المسلمون أن التطور لا يعني انقطاع الخلف عن السلف ، كما لا يعني انكار السلف بالخلف ... ولكنه ظل يتنقل مع سير الشمس ويتلون بلونها وكأنه كما يقول القرآن الكريم في أبلغ ما يكون من عبارة :

ألم تر إلى ربك كيف مدّ الظل ولو شاء لجعله ساكنا [1]

على أنه خطوة بخطوة وخطوة بخطوة . حتى يقطع مسافة بعيدة .. وإلا فكما يقول القرآن الكريم دفاعاً عن موقف التطور أمام المتعطلين :

---

(١) ٢٥/٤٥ .

لا ينال عهدي الظالمين [1]

ولا ينال هذا العهد العملي إلا هؤلاء الذين لا يعرفون إلاّ العمل ولَو كانوا أبناء الجبابرة ولو كانوا مجهولين ...

وهل العدل بالنسبة إلى الله عزّ وجل إلاّ في مجازاة كل أحد بقدر ما عمل ومن جنس ما عمل !؟ إن خيراً فخير في الدنيا والآخرة وإن شراً فشر فيهما وإلاّ فلا حياة ولا شيء ! .

والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته !!! . .

---

(١) ٢/١٢٤ .

الطريقة ايمان وعمل

هل بعدما اخذتِ الصواريخ تنطلق لغزو الفضاء وطفق الإنسانُ يأخذ عُدَّتَهُ لفتح المجاهل الفضائية ... ولاحتلال القمر وهل بعد كل هذا نمشي القهقرى ونرجع إلى وراء ؟ .. وذلك لنكلمكم ونناقشكم فيما يتعلق بمشايخ الطرق ... فيما يتعلق بهذه المعتقدات المظلمة التي جعلت البعض موضع استغلال لبعض آخر ؟

أما الصواريخ فشيء وأما المعتقدات المظلمة فشيء آخر — ولكل منهما أحكام ورجال لاسيما وأن التاريخ البشري قطع متجاورات وجمل يرتبط بعضها ببعض : يرتبط حاضره بماضيه ومستقبله بحاضره . وهل يقبل العقل البشري أن تقوم قائمة الدين بغير الفكر وان تقوى دعامة الفكر بغير الدين ؟ أو بعبارة أخرى :

هل يقبل العقل السليم أن يكون الدين إلاّ ديناً يفكر وأن يكون الفكر إلاّ فكراً يتديّن ؟ ! .

أو لم يكن من واجب الإنسان الذي يُرَكِّب الصاروخ والذي يغزو الفضاء ويحتل القمر أن يؤمن بهذا الربّ الذي ركّب مُركِّب الصَّاروخ وعلّمه ما

لم يكن يعلم ؟

« والله خلقكم وما تعملون » [1] !

وهل الغرض هو الإلمام بالعلم ثم الاعتماد على هذا الإلمام لتركيب الصاروخ ولغزو الفضاء من دون أن يحسم ذلك الحاجة ؟ من دون أن يحسم ذلك الفزع والجزع ؟ من دون أن يحسم ذلك المرض والموت ؟

وهل يستوجب العلم في نفس الإنسان الاحاطة بالحقائق ؟ فيكون الكفر بعد العلم كارثة من أعظم الكوارث ؟

أو لم يكن الكفر بعد العلم إلاّ من العوارض التي تعترف بعجز الإنسان وأنه في هذه الحياة المزدوجة لحل غباوة وحيرة ونقصان ؟

فإنفذوا لا تنفذون إلاّ بسلطان [2]
ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها [3]

وأمام كل هذا نتساءل :

ما مصدر العلم ؟ ما حقيقة العلم ؟ ما حد العلم ؟ وما غاية العلم ؟

فيجيب الإنسان، وبينه وبين هذه الحقائق حاجز من أمنع الحواجز : من عمى في بصره ؛ من وقرٍ في سمعه ؛ من ثقل في نطقه ... وانه في مرحلة من أشقى مراحل سير الجنس إلى الكمال ! ! !

وهل من الرأي الصائب أن لا تكون الحياة إلاّ حياة مطعمة ومسغبة والإنسان بينهما في خسارة ! والإنسان بينهما في شقاوة !

بهذا نرى أن الإنسان لا يطلب السعادة إلاّ خارج هذه اللقمة التي تتحول إلى ما نعرف ، وإلاّ خارج هذا السرور الذي انتقل بمجرد تنقل عقرب الساعة ..

بل بهذا يتأكد علينا أن نتشوف إلى تلك الحقيقة التربوية المقدسة التي تنطق

---

(١) ٩٦/٣٧ (٢) ٣٣/٥٥ (٣) ١٣/٣٢ .

بحياة أخرى : بالحياة الأخرى ، والتي تصارح الإنسان بأن الحياة الأولى مستقرٌ ومستودع ، وأن الآخرة خيرٌ من الأولى ... إلى تلك الحقيقة التي من أسمائها الدين والتي تحمل ضعفةَ العلماء على أن يعتقدوا أن الدين عبادات وحسب وأن العبادات تنحصر أيّ انحصار في بعض الأمور التي يتلقونها باسم الرموز باسم النواميس وأن القرآن لا يرضي الإنسان إلاّ ليكون ساجداً أو حاجاً أو صائماً

بل أن الدين هو تقديس الحركات كلها بالإيمان حتى الإثم وحتى الجريمة وحتى الكفر ...

إن الأيمان الإثم بالجريمة ، بالكفر خطوة واسعة إلى تقديسه بالإجتناب ، بالتوبة ، أو بتفويض الأمر إلى الله جلّ جلاله ...

وهل الإثم ، وهل الجريمة ، وهل الكفر إلاّ من الحقائق التي يُستَدلُّ بها على وجود الله ؟ وهل الإثم ، وهل الجريمة ، وهل الكفر إلاّ جزء من العلم ؟

ولتخليد هذه النواميس العلمية والخلقية والروحية ، ولرفع الإنسان إلى مستوى الإنسانية ، أخذت الكتب وأخذت الأنبياء وأخذت العلماء تعمل في إثر الوحي ... إثر هذا المصدر الفذّ الذي يأخذ الرّجلَ من الغيب والذي من أجله أسّست الشرائع والمذاهب ونُظمت المناهج والطرق ...

بما أن السيد الشيخ أحمد التجاني الحسني الفاطمي هو من رجال هذا المصدر وبعض منظمي هذه المناهج والطرق التي تربّى فيها ملايين من أهل العلم دعانا داعي السعادة والخير إلى أن نباحثكم في نشأته ايها السادة، لا لكونه فلاناً أو ابن فلان، ولكن لكونه ديناً وفكراً .. لكونه حياة وفلسفة.. لكونه تربيةوترقية وذلك كما قال الشاعر :

وما عرّف الأرجاء إلاّ رجالُه وإلاّ فلا فضل لترب على ترب

أو كما قال الآخر :

ليس الشريف الذي الحسنيُّ والده بل الشريف شريف العلم والحسب

وكان في ذلك كمترجم لتلك النواميس أو كمعلّق على تلك الحقائق ! بل كان في ذلك كمن يبني بيتاً إلى جانب بَيْتٍ ... ثم من بيت ببيتٍ فقصر !

بل كان في ذلك رجلاً يحب الاتصال بالرجال ويحب زيارة الأعيان المبجّلين إلى أن عقل هذا الشيء العجيب ؛ إلى أن عقل أن الطريقة أيةً كانت لا تخرج عن هذا الحد : الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ...

وأن التربية مهما علت وتقدست لا تتنكّرُ للعقل ولا يتنكّر لها العقل — وهذا أساس فلسفته في تنظيم هذا المجتمع الرباني الذي يُسمّي بالطريقة .. ولذلك يُلقي الأوراد بآية من آيات الحرية والاستقلال ؛ بهذه الآية التي تشيرُ إلى أن الحياة اختبار ثم بيعة :

إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله . يدُ الله فوق أيديهم [1]

وبهذه الآية :

لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة [2]

بل يجيب عندما يسأل السائل عن موقف التطرق أمام الأحكام الشرعية فيقول : أمّا التطرق فأمر عقلي ! ... وليس بلازم إلاّ على من ألزمه على نفسه. الا على من يَعُدّه من الضروريات التربوية !

ويفهم الإنسان من هذه البيعة ... أن هناك معنى عظيماً من الاحتراز والتوقّي وأن هناك نوعاً من المثابرة والتدريب — كما قال في القرآن الحكيم :

فَلا تطع المكذبين ودوا لو تدهن فيدهنون [3]

وكما قال :

إن تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين [4] .

وذلك عندما يأخذ الإنسان يُبْدلُ شيئاً بشيء : يبدل بالضعف القوة ؛

---

(١) ١٠/٤٨ (٢) ١٨/٤٨

(٣) ٩/٦٨ (٤) ١٠٠/٣

يبدل بالتعطيل العقيدة ويبدل بالرذيلة الفضيلة وذلك بمثابرة وتدريب !

وهذا سر تقييد الطالب بمدرسة من المدارس الروحية ... لا ليكون الطالب مادّة غذائيّة تملأ بطن الشيخ ؛ أو قوة عملية تحولُ بين الشيخ وبين الحاجة ... ولا ليكون الطالب محروم الكرامة أو منقوص الحرية كأنه لم يتطرّق إلاّ لحمل الدعايات ونشرها بين آفاق البلاد ... لا ليكون الطالب كمُسْتَبِدٍ يستغل نقائصَ الشيخ كأنه لم يتطرّق إلاّ لتوزيع الأباطيل وإلاّ للسيطرة على الشيخ وعلى ولد الشيخ وعلى حرم الشيخ حتى وعلى عقيدة الشيخ !! . والشيخ في ذلك يبقى سبّةً خالدةً على وجه الإسلام وعلى وجه محمد(صلى الله عليه وسلم) وعلى وجه ذي العزة وعلى وجه البلد وعلى وجه كل ذي عقيدة !

نعم! إن التطرق أمر عقلي ... وهذا كما ذكر القرآن تعريضاً برجال المسيحية فيقول :

ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم وكثير منهم فاسقون (١) .

كما يفْهِم الإنسان من معنى الاختيار الجدَّ والاستمرار في الطلب .. وأنه يستوجب العلم والعقل من الطّرفَيْن وأنّه يأبى الانقيادَ الأعمى ويأبى التقليد

فَيُعبِّر عن ذلك للطّرف الأول بقُوَّة السلوك وللطّرف الثاني بقُوَّة الاستنباط فيقول :

إنه لايمكن الإحاطةُ بالفروع إلاّ إذا كانهناك حظ وافر من الإلمام بالأصول ولا يمكن معرفة الأصول إلاّ إذا كان هناك تعمق في العلوم الأدبية والمنطقية بل يقول : إن كلاً من هاتين المرحلتين لا يغني عن النتيجة والغرض شيئاً ...

بما أن النتيجة والغرض هما عبارة عن هذه الإرادة الربانية التي تقول :

---

(١) ٢٧/٥٧

وما أرسلنا من رسول إلاّ ليطاع بإذن الله [1] وتقول :

ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين إنهم لهم المنصورون وإنّ جندنا لهم الغالبون [2]

وتقول – فيما يقابل التأمين من التخويف :

ولئن شئنا لنذهبن بالذي أوحينا إليك [3]

وبما أن العلماء هم ورثة الأنبياء فالتأمين والتخويف إذاً يعم هؤلاء وهؤلاء : يعم الأولين والآخرين – وللوارث ما للمورث :

ولكن الخطر والخطر كله في الاختيار ثم لا نرى كلمة أحق بالتعبير عن ذلك مما قاله الإمام الغزالي في كتابه : المنقذ من الضلال :

قال :

لم أزل في عنفوان شبابي منذ راهقت ، وقبل بلوغ العشرين إلى الآن وقد أناف السن على الخمسين أقتحم لجة هذا البحر العميق وأخوض غمرته وأتوغّل في كل مظلمة ، واتهجّم على كل مشكلة ، وأتقحّم كل ورطة ، وأتفحص عن عقيدة كل فرقة ، واستكشفُ أسرار مذهب كل طائفة لأميِّز بين مُحقّ ومبطل ومتسنّن ومبتدع : لا أغادر باطنياً إلاّ وأحبّ أن أطّلع على بطانته ولا ظاهرياً إلاّ وأريد أن أعلم حاصل ظهارته ، ولا فلسفياً إلاّ واقصد الوقوف على كنه فلسفته ، ولا متكلماً إلاّ وأجتهدُ في الاطلاع على غاية كلامه ومجادلته ، ولا صوفياً إلاّ وأحرص على العثور على سرّ صفوته ، ولا متعبداً إلاّ وأترصد ما يرجع إليه حاصل عبادته ، ولا زنديقاً معطّلاً إلاّ وأتجسّس وراءه للتنبه لأسباب جرأته في تعطيله وزندقته ... ولا ولا ولا

* * *

(١) ٦٣/٤ (٢) ١٧١/٣٧، ١٧٢، ١٧٣ (٣) ٨٦/١٧

بل لا يخرج الاختيار عن إطار العقل ولا عن إطار الحرية (وذو عقل لذي عقل حميم ، وحرٌّ لحرٍّ رفيق) ...

ما يحمل الغزالي على أن يقول أيضاً :

إن اختلاف الخلق في الأديان والملل ثم اختلاف الأئمة في المذاهب على كثرة الفرق ، وتباين الطرق . بحر عميق غرق فيه الأكثرون وما نجا منه إلاّ الأقلون وكل فريق يزعم أن الناجي وكل حزب بما لديهم فرحون ! وهو الذي وعدنا به رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وهو الصادق الأمين حيث يقول « ستفترق أمتي ثلاثاً وسبعين فرقة الناجية منها واحدة » ، فقد كاد ما وعد أن يكون .

* * *

ولا نجاة إذاً إلاّ في القطعيّات لا في الظنيّات ... ثم لا كرامة إذاً إلاّ في الآراء الصائبة لا في الدعايات المزيّفة — يقول الشاعر في ذلك :

خذ ما تراه ودع شيئاً سمعت به ... في طالع الشمس ما يغنيك عن زُحل

ولذلك تتفق المذاهب والطرق وتتفق العلماء المحقون أن أهمية الاختيار تستدعي واحد من المسئولين الروحيين إلى توفير أسباب العلم والمعيشة والكرامة لسد الحاجات وإغناء الضروريات ... يقول الشيخ أحمد التجاني في ذلك ق

من واجب المتصدر إلى ذلك يعنى لهذه المسئولياتِ الروحية المقدسة رفع الهمة عن أبناءِ الجنس ؛ بل يعبّر عن هذه المسئوليات بالخلافة العظمى عن الحق أو بالبر زخية العظمى بين الحق والخلق أو بالنيابة عن الحقيقة المحمدية — وذلك لتقدير هذه المسئوليات التي مبدأها الشهادة ومنتهاها الغيب ... وذلك للترغيب وللترهيب . !

وينطبق على ذلك ما قاله الشيخ محي الدين ابن عربي من « أن القائم بهذه المسئوليات هو مرآة الحق ومحل النعوت المقدسة ، وأنه إن كان ذا دُنيا وثروةٍ

تصرّف فيها تصرف عبد في ملك سيد كريم وإن لم يكن له دُنْياً ولا ثروةً لجأ إلى الأسباب من غير أنفةٍ ولا استكبار ثم لا يجلس عن حاجته إلاّ للضرورة » وهذا بخلاف هؤلاء الذين يدّعون أنهم أصحابُ الأحوال فهم ربّانيون لا مسئولون ... والمسئول إذاً منزّهٌ عن الحال لا يلتفت إلاّ إلى العلم وإلاّ إلى نتائج العلم ... لا تُطوى له ارض ولا يمشي في الهواء ولا يأكل من غير سبب بل يجوع باضطرار لا باختيار ويصبر كما يصبر الناس على النكاح وعلى تنظيم الأسرة وذلك لما فيه من أداء الحقوق الاجتماعية التي لا تحقق المسئوليات إلاّ بها

بل يطبِّق على ذلك ما قاله الإمام الكبير الشيخ عبد القادر الجيلاني من أنّ من واجب القائمين بهذه البرزخية الهيمنة لا على العالم الحسّيّ وعلى رديفه المعنوي فحسب ، بل على عوالم أخرى يبلغ عددها آلافاً مؤلفة ! ولا بُدّ له من الهيمنة عليها واحداً بعد واحد ! وإلاّ فما ثم إلاّ أعداء الله وأعداء الناس ولا ثم إلاّ جهلة العلماء الذين أتى الغزاليُّ بصورتهم في كتابه المنقذ من الضلال فقال : « مثلهم كمثل صخرة وقعت على فم النهر لا هي تشرب الماء ولا هي تترك الماء يخلص للزّرع ... »

وما قوّة السلوك إن لم تكن عبارة عن تطور الشابِّ المؤمن في سيره إلى هذه المسئوليات وما قوة الاستنباط إن لم تكن هذا المعنى العظيم الذي يجعل العلماء ورثة للأنبياء ويجعل الوحي وكأنه لا يستلزم النبوة وذلك وفقاً لما في هذه الفكرة الربانية التي تقول :

إنّا نحن نزلنا الذكر وإنّا له لحافظون [1]

والتي تقدر الجهود المبذولة في تحقيق أماني هذه الفكرة السامية فتقول :

ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبراً [2]

---

١ - ٦٣،١٢/١٢ ٢ - ٧٦،٧٣،٦٨/١٨

ثم تقول :

إنّا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً (١)

وتختم ذلك بهذه البيّنة :

إن ناشئة الليل هي أشد وطأً وأقوم قيلاً . إنّ لك في النهار سبحاً طويلاً واذكر اسم ربك وتبتّل إليه تبتيلاً رب المشرق والمغرب لا إله إلاّ هو فاتخذه وكيلاً (٢)

ويقول محمد (صلى الله عليه وسلم) في ذلك :

قيّدوا القرآن ، فوالذي نفسي بيده لهو أشدُّ تفلتاً من صدور الرجال من العشار في العقل » !

وهذا بحفظ الأهل والسيطرة على الحوادث وهذا بإدراك الحياة وفهم معانيها المختلفة

وهل من الممكن وصولُ الإنسان إلى هذه الغاية النادرة النظير إن لم يكن هناك قسطٌ وافرٌ من العقل ؟ إن لم يكن هناك روح المخاطرة وروح الهمة ؟ يقول الشيخ :

« همة الانسان قاهرة على جميع الأكوان » ..

وكان يجب أن يردّد مع قول الشاعر :

له همم لا منتهى لكبارهـــــا

وهمته الصغرى أجلُّ من الدهر

فيرجع الأمر إلى مـــا ذكرناه أوّلاً مِمّا يتعلق بالاختيار ويتعلق بالبيعة .. أما الاختيار فصورة ايجابية لقوة الاستنباط وأمّا البيعة فعبارة جدية عن قـــوة السلوك بل إن لهذا ولذاك صلة وثيقة بالحياة والطبيعة وبما يدور حولها مـــن الحوادث والظروف والفصول ..

---

١ - ٥/٧٣ ٢ - ٩/٧٣

هكذا كان الشيخ يقدس الحوادث ويقدر الظروف والفصول ويشير بذلك إلى أن تطور الجنس معنى من تنزُّلات الحوادث وتقلبات الظروف وتنوّع الفصول ولذلك نرى ان نقيد هنا بعض المبادىء التربوية والفلسفية التي يأوي إليها ... ولم يأو اليها الا لشدة ارتباطه بهذه التنزُّلات وبهذه التقلبات وبهذه التنوعات : لهذا المبدأ الذي لمح فيه أبوّته الروحية للابناء الطبيعيّين : وهذا المبدأ الذي يذكر فيه أن التربية لاتكون في هذه العصور المتحضرة إلا بالهمة والعمل وهذا المبدأ الذي ينكر فيه على الأحكام الشرعية التي لا توافق العقل فيقول : « ما في الكتب الفقهية إلاّ الخصومات ؛ وهذا المبدأ الذي يُعلن فيه أن التجارة أولى من نوافل الخيرات وأن لم يتلق طريقته عن الغيب إلاّ لتحديد هذه النوافل ولتوجيهها وفق مقتضيات الحال ... وأن التبذير في هذه القرون الاخيرة هو العدوُّ الاكبر للمجتمع الإنساني ؛ ولهذا المبدأ الذي يشرح فيه معنى الحياة الزوجية وأن المصاهرة العاديّة في العراقيل التي تمنع المتناكحين من التحرر ؛ وهذا المبدأ الذي يُحَرِّض فيه الشبان على الاحتراف وأن الاحتراف لا يقبل الظلْم ولا ينافي الحريّة ؛ وهذا المبدأ الذي يقدِّم فيه حق النائم على حق الذاكر إن كانا في بيت واحد ؛ وهذا المبدأ الذي يُغري المسنين فيه بإغراق أوقاتهم في التدريس والذكر حيث أن العُزْلَة الرُّوحية التي يألفها المسنّون إمّا أن تنحسم بالتدريس والذكر وإمّا أنها تبقى خطراً عَظيماً على مستقبل المجتمع ؛ وهذا المبدأ ثم هذا المبدأ ثم هذا المبدأ إلى ما لا نهاية له .

ولم يزل في هذه النظرات التي تُعَدُّ من أرقى درجات الواقعية والإيجابية إلاّ أنه فوق ذلك كان يعتنق مبادىء روحية أخرى توجد فيما وراء الواقعية والإيجابية وفيما وراء الطبيعة ؛ هذه المبادىء التي تجعله ناطقاً بأسم الغيب ، والتي لم تزل تجعل السادة وتجعل الأخيار ناطقين باسم الغيب ؛ هؤلاء السادة وهؤلاء الأخيار الذين كانت صلتهم بالكون هي السرّ في ما ينطقون به من الخفايا والغيبيات التي تجري وراء الظواهر ولو كانت لا تخرج عن حدّها ولا تخرج عن حدّ الإدراك ...

إن الإنسان أعجوبة لا غاية لها كما لا غاية لأعجوبة الطبيعة لكونهما راجعيْن إلى الغيب ، إلى هذا الغيب الذي لا ينحصر على الزمان ولا يقتصر على المكان ، إن فلسفة الزمان والمكان أمرٌ خيالي وعادي ولذلك تتفاوت الحضارات وتتفاوت الأمم على حسب تفاوتها أمام هذه الفلسفة وأمام حدود الوحي والادراك .!

فلننظر إلى ما نطق به صهر الرسول وأسد الله الغالب علي بن أبي طالب حين سئل أين كان الله قبل خلق السموات والأرض ؟ فأجاب :

« كان الله ولا مكان » ... ثم لننطق معه بهذا المبدأ العجيب : وكان العلم ولا مكان ! وكانت الأخلاق ولا مكان !

ثم لننظر ما قاله الشيخ أحمد في ذلك حينما يعترف بالألوهية الوحي وأنه لا يستلزم النبوة ولا العقيدة .

بل إن هذه الصلة بينهم وبين الكون تجعلهم مستولين ومهيمنين على طبائع الأشياء وتعلمهم منطق الطير والوحش ... بل تُفْهمهم دقائق الحركات الحسّية والمعنوية فيجاورون الملوك والشعوب وهم لا يُفَرِّطون في توجيه نصائح إليهم ولا يتغافلون عن تحقيق مَعْنى الوساطة بين الملوك والشعوب .

بهذا يُلْقِ الشيخ أحمد هذا النبأ العظيم ويقول :

« ان المشيخة لا بدَّ لها من وضع سياسة خيّرة بينها وبين الملوك وبينها وبين الشعوب وما دامت المشيخة محيطة بأسرار الحياة المدنية وما دامت هي معين تلك البرزخية العظمى — والاَّ فما أخسر الدين في رسالته الحسيّة والمعنوية .

وهاكم نموذجاً من الرسائل التي كان يوجهها إلى الأمراء

... وهذه إلى أمير المؤمنين السيد سليمان بن محمد سلطان المغرب ... وبعد السلام عليه يقول :

وأوصي السيد الأمير بامتثال أوامر الله واجتناب نواهيه وأَعِظُه بما وعظه الله به قال سبحانه وتعالى :

يأأيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدّمت لغدٍ (١) ـ وقال ايضاً :
يأأيها الذين ، آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديداً (١) ــ وقال أيضاً :
اتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله
ولك في تدبير آيات الله وعظ واعتبار وهداية واستبصار .. فاطعم نفسك من هذه الأدويةبالثبات والاصطبار لاسيّما وفيها نفعْ عظيم لكل من أدمن متابعة هواه بالتوالي والادبار .

وأقول : السلامُ على السيّد أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاتُه ! .

وعلى هذه الجادّة كان يسعى السيد الشيخ أحمد التجاني ويسعى معه عليْها رفقاؤه جزاهم الله عن الأمة الاسلامية خيرا !

---

١ – ١٨/٥٩ .

الاسلام السنغالي بين طبقتين

الاسلام في السنغال اليوم يعيش بين طبقتين : طبقة تقابل الإلهيات بنوع من الغفلة والتقصير أو بنوع من الجمود والتكاسل ... وطبقة ترى في الإلهيات سبباً من أسباب التدهور والانحطاط وعاملاً من عوامل الهدم والاستئصال — وهذا هو الإسلام السنغالي يمشي ويستمر على هذه الحالة ... لا يدري من أين يأخذ النصيب ومن أين يستمد القوة الفكرية والروحية التي يستعين بها على خلق كيانه وعلى تقوية شخصيته ... فإمّا إن الإسلام هو الفارغ من الحق والمنقطع عن الحقائق التي لا تضعف معها الأديان ولا تخفق معها الدعايات ... وإمّا أن المسلمين هم الذين يبدّلون هذه الحقائق بما يشبه الحقائق وليسَ منها في شيء .

إما أن يكون الاسلام هو الذي يسعى في سبيل إقناع الاغراض النفسانية ... وإمّا أن يكون المسلمون هم الذين يتخطون وراء الظنيات التي تكاد تقضي عليهُم وتجعلهُم جنساً ليس له من صفات الجنس البشري إلا صورة كاذبة

والفريقان على نحو من التشاجر كأنما هم .يرون في هذا التشاجر واجباً من واجبات الحياة الإسلامية بل يرون فيه لباساً يستّرون به النقائص ، وحجة يدافعون بها أمام محكمة الإنسانية وامام مجلس الديانة ...

بل كان الفريقان على نحو من الترقب : كل يود أن يكون صاحبه قرين

الشيطان وأليف الخذلان ... كل يود أن لا يكون الخير إلا إذا كان الخير حظه دون الآخر .

وبهذا أخذت أماني الإسلام تتحطم وتتحطم معها أماني الإنسانية وراء هذا المشي الفادح ؛ وراء هذه الظنيات ؛ وراء هذا اليأس الذي كان أبعد شيء من تنزلات الرحمة !

بل بهذا أصبحت التكاليف وهي تتميز من التقاليد — وأصبحت الحقائق وهي تتمثل فيما ينتجه الخيال القذر من الأباطيل والألاعيب

بل بهذا أصبح الإسلام يتساءل عمَّ يتساءل عنه الفريقان : عن كتاب لم يكن إلاّ داعيةً من دواعي التبرُّك ؛ عن رسول لم يكن الا موضع الصراخ والتصفيق ؛ عن الله هو في عرش تحيط به عفاريت من الجن ؛ في ملكوت بعضه عسَلٌ وبعضه بَصلٌ بعضه ثلج وبعضه جذوة نار .

وجـــدير بهذه الأماني أن تتحطم ما لم يكن هناك حقائق تعترف بوجود هذا الكمال العقلي الذي يعبر عنه بكتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وبوجود هذا التمثيل القيم الذي يكني برسول أمين ، وبوجود هذه الإرادة المسيطرة التي توصف بعرش يسع السموات والأرض ...

فإن لم يكن الإسلام على هذا المقياس السماوي وعلى هذا الوضع الإنساني ؛ فما فائدة التدين بالإسلام ؟

ألسنة تتغنى بالذكر وقلوب تضطرم بالحقد وتقاليد تستنكرها الأنعام والبهائم وحياة ملؤها التساقط والانحطاط ، ملؤها التنازع والتحارب .

وكما ذكر بعض المفكرين : أن دعوة الإسلام كانت أبعد شيء من هذه العطية التي تقدم للجهال وتقدم للكسالى ... إنها دعوة إلى الجهد الرشيد توجه إلى أصحاب الجهد الرشيد ... بل كلمة إخلاص يخاطب بها أصحاب الاخلاص إنها لثمرة فكر تعرض على أصحاب الفكر ... بل كانت نهضةً من أعجب

ما يكون من النهضات ينبوعها السماء والرقيب عليها هو الخالق الأكبر — وذلك على حدٍّ ما قال ، مخاطباً الواسطة الأخير :

وأنزلنا اليك الكتاب بالحق مصدّقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق لكل جعلنا منكم شرعةً ومنهاجاً [١] — أو على حدٍّ ما قال :

تالله لقد أرسلنا إلى أممٍ من قبلك فزين لهم الشيطان أعمالهم فهو وليهم اليوم ، ولهم عذاب أليم . وما أنزلنا عليك الكتاب إلاّ لتبين لهم الذي اختلفوا فيه وهدى ورحمة لقوم يؤمنون [٢] — أو على حدّ ما قال :

وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتابُ ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا [٣] .

مع أن هذه المشيئة لا تنافي قانون الاختيار ... ألم يكن الإنسان وخصوصاً الإنسان المسلم مجبولاً على الاختيار ؟

فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر [٤] ...

إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم ، وإن أسأتم فلها [٥] ...

ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فان الله غني حميد [٦]

إن المسلم مجبور على الاختيار والانسان حيوان مختار كما ذكر الغزالي — ولذلك يقول المسلم الأول :

والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته !

---

(١) ٤٨/٥ (٢) ٦٤،٦٣/١٦ (٣) ٥٢/٤٢
(٤) ٢٩/١٨ (٥) ٧/١٧ (٦) ١٢/٣١

الانسان مخيّر فيما بين المرحلتين : مرحلة الإدراك ومرحلة العند ... ولا شك أن نسيان هذه الحقيقة الجوهرية الاختيارية هو الخيانة العظمى – يقول الإنسان الأول :

لو تعلقت همة الإنسان بما وراء العرش لنالته !

ويقول بعض المفكرين المغربيين :

همة الإنسان قاهرة على جميع الأكوان

فالإنسان حينئذ يقوى على أكثر من الاختيار ؛ إنه يقوى على تطبيق قانون الحوالة والنقل ... هذا القانون الذي يجعله يحيا في الأرض وهو في السماء مع الخالق :

أمر على الديار ديار سلمى أقبل ذا الجدار وذا الجدارا
وما حب الديار شغفن قلبي ولكن حبُّ من سكن الديارا

وإذا كان هذا معنى الإسلام ومعنى الدعوة الإسلامية فكيف يقبل المسلم أن يتأخر وكيف يقبل أن يكون ضحية الاكاذيب والاباطيل ؟ ولو باسم الاسلام ولو باسم الخالق ! .

الحق إن الروح الإسلامي أعلى وأشرف من ذلك ... هذا الروح الذي لم يزل يتطلب من المسلم ان يؤمن بهذه القدرة المبدعة الجبّارة ... وبهذه الطاقة المدّبرة الفعّالة ... كما لم يزل يتطلبُ منه أن ينظم سلوكه مع الكائنات تنظيماً يعود إلى نوع من التوازن في المجتمع وإلى التوازن الأكمل !

يقول علماء الغرب :

إن الإسلام ليس ديناً فحسب بل هو دين ونظام سياسي عجيب ؛ وإن محمداً كان في الوقت نفسه رئيساً للدين ورئيساً للدولة . بل كان نبياً في معنى رائف من الكلمة وكان بعد ذلك سياسياً حكيماً ...

فدعوة الإسلام لا تفسد الطبيعة ولا تذرها كالمعلقة ولا تعوّق أبناء الطبيعة

عن التطور كما زعم المتدهورون ... وإذا رأى المسلم نفسه في وادٍ من الانحطاط فذلك لانظار وعادات ونظم يرثها عن آباء – وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا أوَ لو كَان آباؤهم لا يعلمون شيئاً ولا يهتدون .

ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع الادعـــاء ونداءً صم بكم عمي فهم لا يعقلون .

فدعوة الإسلام لا تجمّد ولا تؤخر ولا تحمل على التدهور – ألم يكن القرآن هو القائل :

ولله المثل الأعلى وهو العزيز الحكيم

أوليس القرآن هو القائل :

ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها

وأليس هو القائل :

أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور .

أوليس هو القائل تقريراً لثبوت نواميس الكون :

فهل ينظرون إلاّ سنّة الأولين فلن تجد لسنة الله تبديلاً ولن تجد لسنة الله تحويلاً .

أوليس هو القائل إشارة إلى هذه النهضة الإنسانية التي تشترك فيها الطبائع كلها :

والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والابصار والأفئدة لعلكم تشكرون .

أوليس هو القائل وفقاً للمبدأ التمثيلي :

وفي أنفسكم أفلا تبصرون ؟ !

أوليس هو القائل إجابة لمهمة البحث والطلب :

أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ، كانوا أشدّ منهم قوةً وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها وجاءتهم رسلهم بالبيّنات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون .

فحبذا تكون الدعوة الإسلامية دعوة علمية ، دعوة إيجابية قبل أن تكون دعوة عالمية ؛ وبهذا تكون النهضة الإسلامية نهضة عقلية قبل أن تكون نهضة سياسية ؛ وبهذا يكون الرأي في الإسلام رأي الإجماع بما إذا كان الإجماع في وسط من فهم هذه الحقائق العلمية والدينية مهما شق عليه ذلك ومهما أختلجت عليه الخواطر ... مهما التطمت عليه أمواج الفكر التي هي أعظم من أمواج المحيطات كما ذكر الغزالي ... وكيف يخشى السابح الماهر غشيان الأمواج – لاسيما إذا كان الموت فيها خيراً من الموت على فراش الجهل ... بل بهذا تكون الإمامة في الإسلام تتطلب العقل الوفير وتستدعي الكمال في الأوصاف والأحوال بل تستدعي الحياة لحفظ الطبيعة وترتيب الجيش لحماية الثغر والقضاء على العدوان – بل تستدعي المعرفة بسياسة الرعية وتدبير المصالح الدينية والدنيوية ... فتتفق المذاهب الشرعية على محاربة كل ما يؤدي إلى الاخلال بنظام الحياة والطبيعة وعلى إكراه المتعطلين على العمل ... بل تتفق المذاهب الشرعية إلى جواز مغازلة الصناع والمحترفين الذين تمالئوا على ترك الصنائع وعلى التهاون بالحرية – حتى وإن المذاهب تتفق على إجازة توفير العبادة وإبطال الضريبة لحفظ المال من التسلف ما دام هذا المال يساهم في نشر هذه الدعوة القيمة وهذه النهضة السامية وهذه الإمامة القويمة التي بعضها في الأرض وبعضها في السماء ؟ بعضها في الملك وبعضها في الملكوت بل بعضها في الإنسان وبعضها في الرحمان – وهل الخطة إلاّ بين الإنسان والرحمان ؟ .

والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته !

المسلم

من هو المسلم ؟ هل المسلم هو ذلك المتديّن المحصور الذي يعيش بالأماني ويتغذّى بالظنون ؟

أم هو ذلك الإنسان المعترفُ بوجود الحقيقة الأولى والشاهد على الآيات التي تُنْسَبُ إلى هذه الحقيقة ؟ .

« هو سماكم المسلمين من قبلُ » (١) .

ويفهم من هذه الآية أن المسلم ليس هذا الوحشي الذي يتعصّب لمحمد على غيره من الرسل ... وليس هذا العاجز الذي يتحمّل سيطرة المستعمرين في الجزائر وفي المغرب وفي البلاد العربية كلها ... وليس هذا المتواضع الذي يرى في التطوعات دون الواجبات أسمى معاني الحياة البشرية .

وليس هذا الشاب الذي ينتفخ عندما يُذكرُ الإسلام ويُذكر محمد بالسوء ؛

وليس هذا المثقف العصري الّذي يدافع عن الهويات والرياسات وعن طيّبات من الرزق .

إنما المسلم هو تلك الصورة الحسيّة الخالدة التي نشأت وتطورت مع ذلك المعترف وسوف تبقى معه إلى أن تسيّر الجبال وتسجّر البحار وتزوّج النفوس(٢) هذه الصورة التي تمشي وراءها المنظمات ، وتمشي وراءها الأديان ، والتي

---

١ — ٢٢/٧٨ .

٢ — إشارة إلى الآية ٨١/٧ « وإذا النفوس زوجت »

يتجر بها المتجرون ويتغازى بها المتغازون من عهد التسوية إلى النفخ في الصور ..

إنما المسلم هو تلك الحقيقة الوجدانية التي لا يهتدي إليها ولا يكشف عنها إلاّ من عقل معنى المسلك وعرف مدارك الحكمة وكانممن يتلقى سرّ الوجود عن سبيل الفطرة وعن نهج البداهة – ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا ..(١)

يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً .

فإن لم تكن هنا الحقيقة الأولى فَلا مسلك ولا حكمة . وإن لم يكن المسلك والحكمة فلا فطرة ولا بداهة ، وإن لم تكن الفطرة والبداهة فَلا مسلم ولاشيء

الله خالق كل شيء وهو على كل شيء وكيل، له مقاليد السموات والأرض

وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو(٢) ..

وهذا ما يدل على أن المسلم جزء متطور بأسمى معاني التطور من الحكمة لا شريك فيها وأن حياته المزدوجة مرحلة من مراحل هذا التطور ، وأن الأحكـــام كلها إرشادات وتوجيهات تأخذ بزمام المسلم وتصَوِّرُ له القيمة : وعلّمك ما لم تكن تعلم وكان فَضل الله عليك عظيماً (٣) .

ولم يكن لهذه الأحكـــام من مصدر معيّن الا الوحي والا التجريب ... وكل منهما يتحقق ويتطوّر تحت رقابة الحكميم العليم :إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون (٤)

وكل منهما بالنسبة له جل جلاله حقيقة إيجابية يحيا بها الكمال ، وبالنسبة للمسلم حقيقة إيجازية تعود إلى الإيعاز والرمز ويتكنفّها النقائص : النقصان في التعبير ، والنقصان في الفهم ، والنقصان في الأداء ...

---

١ – ٥٢/٤٢ ٢ – ٥٩/٦ ٣ – ١١٤/٤

٤ – ٥/١٥ .

وتلك هي سنته في هذا الكون ، ومع هذا المسلم : سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلاً (١)

والمسلم في هذا جزء من الأمر أو جزء من الحكمة يتطور ويسعى إلى الغاية إالكبرى : هو الأمر وهو المكلفُ بالأمر وهو صاحب الأمر :

«أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم»(٢)وتتفق المناطقة على ان طلاق الآية على أن الطلب نوعٌ من الكفر وأن الخطاب هنا معناه الجزم . كماتتفّق على أن سر الحياة لايوجد إلا في طي هذه الآية أو في طي هذا الخطاب .

ولذلك ترى أن الأحكام تعطى للمسلم معنىً آخر ، تعطي المسلم معنى الإنسان المكلف ... وذلك من دون أدنى تفرقة من حيث النظر إلى المكانة ومن حيث النظر إلى الطبقة والنسب ؛ حيث ان المسلم – قبل كل شيء – وحدة كونية من شأنها أن تجهل المكانة والطبقة إلاّ إذا كانت المكانة والطبقة نتيجةً لسوء الفهم أو معنى من النقصان في الفهم ... « ولأن الخطاب معناه الجزم كما قال بعض المفكرين تأبى روح الشريعة أن تتكلم إلاّ عن واجبات المسلم لا عن حقوقه ؛ إذ الحقوق ملكية خالصة لوجه ذي العزة ...

إنما المسلم مكلف بالمحافظة على هذه الحقوق ، وملزم بصيانتها مع الانتفاع بها وذلك وفق الحدود التي رسمت لها »

والمسلم إذن هو المكّلف ، والمكلف هو الوكيل ولذلك لا ينظر إليه كصاحب حق ولكن كمسؤول أو كجزء منظور من تلك الحكمة العليا التي هي الأساس في كل شيء .

والله يعلم وأنتم لا تعلمون (٣)

ولذلك يُعبّر بالشرع عن مجموعة من هذه الواجبات التي بعضها متعلق

---

١ – ٦٢/٣٣ ٢ – ٥٨/٤ ٣ – ٢١٦/٢، ٢٣٢ .

بالإيجاب وبعضها بالسلب ؛ بعضها فرض على المسلم كفرد وبعضها فرض عليه كأمّة ... بل بعضها خاصة بالله كالعبادة التي هي الصلة بين الفرد والرب كإرشاد روحي ، وبعضها بالله أيضاً ولكن فيما يتصل بمصلحة الأمة كتوجيه سياسي واجتماعي ... ثم لا تصلح الثانية إلاّ بالأولى وكانت عقدة التوازن بينهما هي الأخلاق الفاضلة .

نعم ! بعضها فرض على الإنسان كفرد فتُسْمى من ذلك بالفردية أو العينية وبعضها عليه كأمة فتُدعى بالكفائية فيظهر من ذلك معنى الإنابة والتمثيل هذا المعنى الذي تتقاتل عليه الآراء العصريّة في غزواتها واستعماراتها والذي يحمله بعض عن بعض ، يحمله أهل الحلّ والعقد عن الأمة والذي يوجد وراءه الخلاق العليم :

الله خالق كل شيء وهو على كل شيء وكيل (١)

فمن هنا يظهر وجوب التعاضد بين أجزاء الأمة لتحصيل سلطة أو سلطات معيّنة تقوم بالأولى والأخرى : وتعاونوا على البر والتقوى (٢) ..

وذلك لئلا يقع الجور ولئلا يقع الخداع ولا تعاونوا على الاثم والعدوان فتهلك من ذلك الأمة ويهلك معها الفرد بالحرب والكفاح أو بالإضراب والمظاهرات .

أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم (٣) .

طاعة تستلزم الأمن في المسلم كفرد وفيه كأمة ثم لا حرب ولا كفاح ولا إضراب ولا مظاهرة :

ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً (٤).. وكان حقّاً علينا نصر المؤمنين (٥) ... وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون (٦) .

---

١ - ٦/١٠٢، ٤٩/٦٢ ٢ - ٥/٣ ٣ - ٤/٥٨
٤ - ٤/١٤ ٥ - ٣٠/٤٧ ٦ - ١١/١١٨ .

ثم إن الواجبات في عينيّتها وكفائيتّها لم تكن إلا صورة من سطور هذا الجزء ؛ وان كل تطور يحتاج إلى حكم هو الروح أو هو نفس الحكمة في ذلك ولكن هناك مناقضات ومعاكسات تتحول دائماً إلى خطر لما في نفس التعبير ولما في نفس الفهم ولما في نفس الأداء من النقصان : هذا النقصان الذي يسير إلى أن الحياة الدنيا لم تكن بالقياس إلى جانب الحياة الأخرى إلاّ نوعاً من الخيال

ان الدار الآخرة لهي الحيوان (١)

ولأجر الآخرة أكبر (٢)

وإن المسلم مهما تتابعت عليه المناقضات والمعاكسات فلا يسوغ له أن يقابلها بالجرأة والتهتّر :

وأنا لا ندري أشرٌّ أريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربّهم رشداً ؟! (٣)

ألقاه في اليم مكتوفاً وقال له : إياك إياك أن تبتل بالماء .

ولكن بالاستمرار في التطور على هذا الوجه الذي ترضاه الفِطرة ويرضاه الوحي والعقل

فما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا وما عند الله خير وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون ، والذين يجتنبون كبائر الاثم والفواحش وإذا ما غضبوا هم يغفرون والذين استجابوا لربّهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون .

وكان من الصواب أن تحمله المناقضات والمعاكسات على أن يفكر : يفكر في الآية :

ولكن في إطار العمل العادي أيضاً ، ربما شعرنا باستنباط طبيعي (الفطرة) لا يعتمد على القضايا المنطقية ولكنه الدليل على أن فينا – كما ذكر أرسطو – شيئاً من الأقنوم المقدس » .

١ – ٦٤/٢٩ ٢ – ٤١/١٦ ٣ – ١٠/٧٢

أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم ... فيفهم منها معنى الإدراك بالفطرة ، وأن الهداية والطاعة بيد الخلاق العليم ، وان التبليغ والتبليغ وحده هو شأن الرسول ، وأن القلب الذي يتلقى المعرفة هو قطعة مستقلة من الجزء : إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أوألقى السمع وهو شهيد (٤) .

بل يفهم منها أن موافقة صاحب الأمر على تنفيذ الأمر التزام إلهي يجري من قِبَل الطَرَفين : هذا بالانقياد وذاك بالعدالة ؛ هذا بالحب والاحترام وهذا بالرأفة والشفقة – حيث لا ينافي كل ذلك أن يكون المسلم حراً في هذا التطور المسمى بالطاعة ... على أن الحرية لا تعني الإهمال ولا التعطيل ولكنها معنى من الاختيار الذي يعبّر عنه بكلمة النية إنما الأعمال بالنيات :

كما يفهم منها أن الواجبات وأن الحرية والاختيار ليست هي نفس الغاية ولكنها وسائل موضوعة وعوارض مبعثرة في منهاج سير المسلم وفي سبيل عودته إلى الغاية :

أفحسبتم أنّما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا تُرجعون ؟ فتعالى الله الملك الحق لا إله إلاّ هو ربّ العرش الكريم .

أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون ؟ أم خلقوا السموات والأرض ؟ بل لا يوقنون .

تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير ، الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً (١) .

« وهناك استنباط سماوي نهتز اليه بدافع من روح القدس والذي يعود إلى نعمة الله على البشرية ؛ هذا الاستنباط الذي يرفع النفوس الطاهرة المطمئنة إلى الأعمال غير العادية التي أساسها التنسك .

١ – ٣٧/٥٠ ٢ – ٧/١١ ، ٢/٦٧ .

تم إن الأخلاق الفاضلة هي عقدة التوازن في كل ذلك ...

نعم ! فالاخلاق الفاضلة تعبّر عن معنى عظيم من التوازن بين العالمين أو بين الواجبين أو هو ثالث الثلاثة !

وعلى هذه الخطة تجري مسالك الأحكام التي تمتاز بها هذه المرحلة والتي يندرج عليها هذا التطور فيبدو فيها المسلم وهو كفرد .

وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا إيّاه وبالوالدين إحساناً، إمّا يبلغن عندك الكبرَ أحدُهما أو كلاهما فلا تقل لهما أفٍ ولا تنهرهما وقل لهما قولاً كريماً ، وأخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل ربّ ارحمهما كما ربياني صغيراً ، ربكم أعلم بما في نفوسكم إن تكونوا صالحين فإنه كان للأوّابين غفوراً وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذّر تبذيراً إنّ المبذّرين كانوا إخوان الشياطين وكان الشيطان لربّه كفوراً . وإما تعرضن عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها فقل لهم قولاً ميسوراً ، ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً، إنّ ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر انه كان بعباده خبيراً بصيراً ، ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم إن قتلهم كان خطئاً كبيراً ، ولا تقربوا الزنى انه كان فاحشة وساء سبيلا ولا تقتلوا النفس التي حرّم الله إلاّ بالحق ومن قُتِل مظلوماً فقد جعلناه لوليه سلطاناً فلا يسرف في القتل إنه كان منصوراً، ولا تقربوا مال اليتيم إلاّ بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسؤولاً وأوفوا الكيل إذا كلتم وزنوا بالقسطاس المستقيم ذلك خير وأحسن تأويلاً ، ولا تقفْ ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولاً . ولا تمش في الأرض مرحاً إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولاً . كل ذلك كان سيّئُهُ عند ربك مكروهاً ، ذلك ممّا أوحى اليك ربك من الحكمة ولا تجعل مع الله إلهاً آخر فتلقى في جهنم ملوماً مدحوراً (١)

---

١ - ١٧/من ٢٣ الى ٢٨ .

فكما يبدو المسلم فيها وهو كفرد يبدو فيها وهو كصاحب أمر أو كأمة فتظهر فيه روح الكفائية وتتضافر عليه دواعي الإنابة وأسباب التمثيل :

يا داود إنا جعلناك خليفةً في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله . إنّ الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب (١) .

وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط إن الله يحب المقسطين (٢).

ان الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل (٣) .

كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولو على أنفسكم أو الوالدين والاقربين(٤)

لا يجرمنكم شنئان قوم على أن لا تعدلوا اعدلوا هو هو أقرب للتقوى (٥)

فأما اليتيم فلا تقهر وأما السائل فلا تنهر وأما بنعمة ربك فحدث (٦) .

ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً ، إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاءً ولا شكوراً (٧).

بل يبدو فيها المسلم بعض الأحيان كوحدة كونية يرتكز حولها كل شيء أو كعالم أكبر يدور حوله العوالم كلها :

إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبثّ فيها من كل دابّة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون (٩) .

---

١ – ٢٦/٣٨ ٢ – ٨/٦٠، ٩/٤٩، ٤٥/٥ ٣ – ٥٧/٤ .
٤ – ٩/٥ ٥ – ٣/٥ – ٩ ٦ – ١١/٩٣
٧ – ٩/٧٦ ٨ – ١٦٤/٢ .

« ولعلك تتصور تلك المسرة التي تأتي عن طريق الانقياد التام إلى تصرفات الله ذي العزة والجبرو

أولم يروا إلى الطير مسخرات في جو السماء ما يمسكهن إلا الله (١).

تبارك الذي جعل في السماء بروجاً وجعل فيها سراجاً وقمراً منيراً »(٢)

وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البرّ والبحر(٣)

الم نجعل الأرض مهاداً والجبال أوتاداً(٤)

الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح ، المصباح في زجاجة الزجاجة كأنما كوكب دوىٌّ موقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسه نار ، نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شيء عليم (٥) .

فقضاهن سبع سموات في يومين وأوحى في كل سماء أمرها (٦).

والسماء رفعها ووضع الميزان (٧)

فإن لم يكن المسلم يمتاز بهذه الخطة التطورية الإيجازية فما معنى المسلم ؟ وهل يقبل المسلم عندما يعتبر فرداً أن يكون قرين الوحشيات ؟

إن هم إلاّ كالأنعام بل هم أضل سبيلاً ،(٨)وهل يقبل عندما يعتبر أمةً أن يقدس الفوضويات ؟

وكذلك جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها وما يمكرون إلاّ بأنفسهم وما يشعرون (٩).

وما أهلكنا من قرية إلاّ ولها كتاب معلوم (١٠) .

أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك(١١)؟

---

١ — ٩٧/١٦ ٢ — ٦١/٢٥ ٣ — ٦٣/٢٧،٩٧/
٤ — ٧/٧٨ ٥ — ٣٥/٢٤،٢٥/١٤،١٩/١٣
٦ — ١٢/٤١ ٧ — ٧/٥٥ ٨ — ٤٤/٢٥
٩ — ١٢٣/٦ ١٠ — ٢٠٨/٤٦،٤/١٥ . ١١ — ٣٠/٢

وهل يقبل عندما يعتبر وحدة كونية أن يستهين بالآيات ؟

وما منعنا ان نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأوّلون (١).

يكاد السموات يتفطرن من فوقهن (٢)

أوليس هنا معنى من أسمى معاني الوحي والرسالة والتعليم ؟

أولم تكن حياة المسلم الاّ جانباً كبيراً من هذا الوحي ؛ ومن هذه الرسالة، ومن هذا التعليم ؟ وهل يقتضي كل ذلك أن يكون المسلم في تقدم دائم وسعي مستمر وأن لا نقدس الحياة إلاّ بقدر ما تقدّس الحياة مدارك هذا الوحي وهذه الرسالة وهذا التعليم ؟

ومن لم يحكم بما أنزل الله فاؤلئك هم الكافرون (٣)

وذلك رغم تنزلات الحوادث ورغم تعاقبات العوارض ؛ هذه الحوادث وهذه العوارض التي يقابلها المسلم بنقصان من التعبير ونقصان من الفهم ونقصان من الأداء !

والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته !

* * *

---

١ – ٥٩/١٧ ٢ – ٥/٤٢ .

« أصبحت الفضيحة اليوم تسود العالم الإنساني – ومن واجبنا إذاً أن نتجاهل سلطتها ونعمل للقضاء عليها احتفاظاً بشخصيتنا ... والوسيلة الأولى إلى ذلك هي الاعتراف بوجود الله تعالى !

فان الله تعالى حقيقة كائنة تتصاغر دونها الحقائق كلها – فان لم يكن الله فكيف يكون العالم ؛ فالا عتراف إذاً بوجوده يفيد التغلب على عوامل هذه الفضيحة ...

ويستشهد بما قاله السلف :

ما أسعد الذين يطيعون بلا أي غرض إن لم يكن غرض الإطاعة ... وهذا الفضل لا يعود إلى إرادتهم ولكن إلى ذلك النور الذي يهدي به الله من يشاء »

٣ – ٤٧/٥ — ٤٨ — ٥٠ .

نجابة الولد من نجابة الوالد

إنه إذا لم يكن للإنسان غنى عن دين الله عزوجل ، فليس لدين الله عز وجل من غنى عن تكوين الشخصية الإنسانية التي هي المعنى وهي الشرط الرئيسي بل هي العلّة الأولى في أداءِ الشهادة بالمعرفة وفي تطبيق المعرفة بالعمل .

من أجل ذلك يتفق المفكرون وسائر علماء النفس على أن الفضائل والعلوم لا تكون في إطارها الحقيقي إلاّ إذا كانت ممثلة في الإنسان ، وإلاّ إذا تحلّت بها شخصية الإنسان في تطورها الأبدي — وإلاّ فكما قال القرآن الكريم :

مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً (١)

على أن الشخصية الإنسانية تتكون مع الاسم واللقب ومن يوم الولادة ... فيغدو الولد وهو نتيجة العمل للوالدين ... إمّا عملاً صالحاً وإمّا عملاً غير صالح ... إن كانا عاقلين فهو بهما عاقل . وإن كانا عالمين فهو بهما عالم ، وإن كانا فاضلين فهو بهما فاضل ... وهذا معنى قوله (صلى الله عليه وسلم)

« ثم أبواه يهوّدانه أو يمجسانه أو ينصرانه » — ومعنى قوله تعالى :

قوا أنفسكم واهليكم ناراً (٢)

وإلى ذلك يشير القرآن أيضاً حكاية عن نبي الله لقمان . بهذا القول :

يا بني أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك ان ذلك من عزم الأمور (٣) .

---

١ — ٥/٦٢ ٢ — ٦/٦ ٣ — ١٨٦/٣ .

فكأنه يشير بذلك إلى أن الولد صورة عمل الوالد وانه في حد ما قال الغلام مجيباً لهذا السؤال الذي ألقاه عليه أمير من امراء المؤمنين :

– انت ابن من يا ولد ؟

– فأجاب : ابن الأدب .

فقال الأمير :

– آه !! نِعْمَ هذا النسب الذي تنتسبُ إليه يا ولد ... ويتابع قائلاً :

– المرء من حيث يوجد لا من حيث يولد ومن حيث يثبت لا من حيث ينبت ، المرء بفضيلته لا بفصيلته ، وبحسبه لا بنسبه ، وبكماله لا بجماله ...

هذا هو شأن الوالدين مع الولد فكان جزاءهما أن يحسن إليهما ما داما عنده وما اكتسبا له من الاحسان يقول القرآن في ذلك :

ووصينا الإنسان بوالديه إحساناً (١)

ويقول :

وقضى ربُّكَ أن لاَّ تعبُدوا إلاَّ إيّاه وبالوالدين إحساناً (٢)– إن كان هناك حظ في الإحسان ...

وكان كما يقول :

كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزرَّاع ليغيظ بهم الكفار (٣) .

او كما يقول حكاية عن خير والد وخير ولد :

يا بني إني أرى في المنام أنّي اذبحك فانظر ماذا ترى ؟ قال : يا ابت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين (٤) .

---

١ – ١٥/٤٦ ٢ – ٢/٨٣، ٤/٣٥، ٦/١٥١ ٣ – ٤٨/٢٦ ٤ – ٣٧/١٠٢

وإن لم يكن هناك حظ في الإحسان فلا إحسان ! وكان كما يقول :

وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما (١) ...

هذا وإن التكوين العملي للشخصية يعتمد كل الاعتماد على الآلات الموجودة عند الإنسان ويعتمد على الوسط بل على الرغبات التي يحاول الإنسان تخفيفها — وكان كما قالت زوجة الرسول الثانية مولاتنا عائشة :

إن معرفة الإنسان بنفسه هي الخطوة الأولى والخطوة الحازمة إلى معرفة الإنسان بربه — فكأنها تعني بذلك أن الظواهر لا تعوق ولكنها تقود إلى البواطن فيظهر من ذلك هذا المعنى العظيم الذي يحمل الموحّدين على تسمية الإنسان بالممكن ... وبالممكن الذي يمتد وينبسط إلى ما لا نهاية له ، أو إلى الغيب — فتكون الشخصية وهي هذه الغاية المشتركة التي تهدف اليها وسائل الحكم ، النفسانية منها والاجتماعية ، والتي تعمل لها العدة عندما تقع وتتوارد عليها الحوادث ... هذه الغاية التي تجعل زوجة الرسول الأولى مولاتنا خديجة تقول لمحمّد (صلعم) إنك لتصل الرحم وتقري الضيف . والتي يقول القرآن من أجلها مخاطباً محمداً (صلى الله عليه وسلم) :

وإنك لعلى خلق عظيم (٢) !

هذا الخلق الذي يمكّن محمداً (صلى الله عليه وسلم) من أن يكون إنساناً محموداً في كل شيء؛ محموداً: أن يكون شجاعاً في الحرب، عادلاً في الحكم والقضاء ؛ شقيقاً في الصحبة ؛ ماهراً في القيادة ؛ بصيراً في الإرشاد ، حكيماً في الحياة ؛ مخلصاً في الدين ؛ محسناً في العمل ؛ سخياً في الإنفاق ؛ ذكياً في التوجيه ؛ إنساناً محموداً في كل شيء محمود ! .

أوليس هذا معنى من أسمى معاني التضحية والشجاعة ؟

إنسان يحبس النفس عن الجزع ، واللسان عن التشكي ، والجوارح عن

---

١ — ١٥/٣١ ٢ ٤/٦٨ .

فعل المذموم ، إلى أن بلغت به الهمة أقصى درجات الرقي الإنساني ... إلى أن تكاملت فيه الأخلاق الفاضلة إلى أن تطوّعتْ له هذه الشخصية المطهرة والتي تصور في الكتب الغيبية باحسن ما يكون من التصوير ...

ثم لم ينشَبْ أن يضحّي بهذه الشخصية في سبيل إرضاء الغيب الذي يخاطب محمداً بهذه الكلفة المودّبة فيقول :

قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إليّ أنما إلهكم إله واحد (١)– وهذا لتبقى الشخصية المحمدية بعيدة عن تلك الشخصيات العليلة التي تفسُد بالاصلاح ... فَكان محمدٌ وهو ليس بشاعر عرضة لهم يتربصون به ريب المنون ، وليس بساحر مجنون ولا بمتعلم سفيه ولا بمعلم ناقص ولا بمتكبر جبار ...

بل إنما هو انسان يحاول أن يقنع شخصيته بخير ما يتلقاه الإنسان من المبادىء السامية التي لم يكن من طاقة العقل ولا من استطاعة المنطق أن يجهل او يتجاهل حقائقها الملموسة وهذه شخصية محمد (صلعم) ترقى مرة إلى تلك الذُرْوة السامية ثم تهبط مرات أخرى لكيلا تقع ضحيّة الاستكبار والتجبرُّ – ولكيلا تنسى أن الحياة في الأرض لهوٌ ولعبٌ وزينةٌ وتفاخر بين الناس وتكاثر بالأموال والأولاد ... وأنها بمستقرٍّ ومستودع وأنها مع ذلك بلاء من الله عظيم ... وأن الخير والخير كله في اتصال هذه الشخصية بالغيب ، لا لتحصر مصالحها في أكلة أو شربة ولا في قطعة من نزهة أو زينة ...

وهذا محمد (صلى الله عليه وسلم) يقول في ذلك :

من أصبح وهمّه الدنيا فليس من الله في شيء . ومن لم يهتم بالمُسلمين فليس منهم ومن رضى الذلة من نفسه طائعاً غير مكره فليس منّا .

بل يقول في ذلك عندما يُوصي مُعاذ بْن جبل :

« يا معاذ أوصيك بتقوى الله ، وصدق الحديث والوفاء بالعهد ، وأداء

---

١ – ١١١/١٨ – ٦/٤١ .

الأمانة ، وترك الخيانة ، وحفظ الجار ، ورحمة اليتيم ، ولين الكلام ، وبذل السلام ، وحسن العمل ، وقصر الأمل ، ولزوم الإيمان ، والتفقّه في القرآن ، وحبّ الآخرة ، والجزع من الحساب ، وخفض الجناح ...

وأنهاك أن تسبّ حكيماً من الحكماء أو تكذّب صادقاً أو تطيع آثماً ، أو تعصي إماماً عادلاً ، أو تفسد أرضاً ، وأوصيك باتقاء الله عند كل حجرٍ وشجر ومدر وأن تحْدِث لكل ذنب توبة : السر بالسر ، والعلانية بالعلانية »

هذا هو الإسلام ، يحرص أشد الحرص على أن يحقّق في الإنسان العادي الانسان الحقيقي وفي شخص الإنسان الشخصيّة الإنسانيّة ويختار في ذلك سبيل العلم والمعرفة ثم سبيل الشهادة والعمل لئلا تختلط الفضيلة بالرذيلة أو لئلا تدعى الرذيلة بالفضيلة بل لئلا يُصبحَ الإنسانُ صريع الأمراض المعنوية التي تحطّ كبراء العالم إلى هوّة التساقط فيحسدون وهم أغنياء ، ويكذبون وهم حكماء ويظلمون وهم أقوياء ويخلعون وهم شرفاء ...

كما يختار في ذلك السبيل الوسط الذي يُعطى لكل من الحياتين الدنيوية والأخروية بما لها من الحقوق ... وذلك من دون إفراط ولا تفريط ؛وذلك لتتطور هذه الشخصية في جوّ من التوازن ولو في ساحة الحرب ولو مع تقلبات الذين كفروا في البلاد ؛ هذا التوازن الذي يُعيّنه القرآن تارة بالصبر — فيقول :

واصبر وما صبرك إلاّ بالله ولا تحزن عليهم ولا تك في ضيق ممّا يمكرون(١

وتارة بالتوكل والإيمان ، فيقول :

الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون الذين قال لهم الناس : إنّ الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا : حسبنا الله ونعم الوكيل ، فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم بسوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضلٍ عظيم(٢)

وتارة بالتفكّر — فيقول :

---

١ — ٧٠/٢٧ ٢ — ١٧٣/٣

ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك(١) وتارة بالتذكر ، فيقول حضرة الغيب على لسان شاعرٍ في قطعة من الشعر :

تذكر جميلي فيك إذ كنت نطفـــةً ولا تنس تصويري لشخصك في الحشا
وسلّم لي الأشياء واعلم بأنـــني أصرف أحكامي وافعل ما أشا

أو كما يجيب حاتم الأصم عندما سئل من أين تحصل على هذه النعم ومن أين تأكل فيقول :

ولله خزائن السموات والأرض ولكن المنافقين لا يفقهون .

فتصير الحياة حينئذ أمام هذه الشخصية لا كارثة من الكوارث كما أقرّ بعض الثائرين بل جهاداً في سبيل حل المشاكل . وفي سبيل ارجاع القيمة إلى الوسائل الإيجابية ــ يقول القرآن الكريم في ذلك :

والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله مع المحسنين .

وإلاّ فالحياة رهينة الأباطيل ووديعة بين أيدي مجانين! وإلاّ فالشخصية ليست إلاّ كطيف من الخيال ــ وكان كما يقول القرآن الكريم :

وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشبٌ مسندة (٢) .

أو كما يقول الشاعر :

جعلوا لأبناءِ الرسول عـــلامـــةً إنّ العلامة شأن من لم يشهـــر
نورُ النبوّة في كـــريم وجـــوههـم يغني الشريف عن الطـــراز الأخضر

وعلى هذا يعبر الإنسان في الإسلام عند تكوين شخصيته المحترمة ــ لا كمجموعة يتشابك بعضها ببعض ولكن كأقنوم مستقل يفعل الحركات والأعمال

---

١ ــ ١٩١/٣ ٢ ــ ٤/٦٣

ويمتد بالحركات والأعمال إلى الأقنوم الأصلي الذي لا يسع للمنطق أن يعينه بالاسم بل بالصفة ؛ وبصفة خاصة لا ثاني له فيها ... وكان وجود هذا الأقنوم وبقاؤه وغناه يخالف كثيراً وبلا حدٍّ وجود غيره من الأقانيم وبقاءها ...وغناها وكل ذلك لكي لا تصطدم سلطة بسلطة ولكي لا تحتك إرادة بإرادة — يقول القرآن الكريم في ذلك :

لو كان فيهما آلهة إلاّ الله لفسدتا . .

ويقول المفكر الغربي والفيلسوف المسيحي *La Craix* تعليقاً على هذه الآية :

ومن هذا نؤمن بوجود الله ووحدانيته تعالى ... وجدير به أن يكون وإلاّ فلا معنى للحياة ولا للكون ، ويتابع قائلاً : « فإن الإيمان بذلك رفض للفضيحة واحتفاظ بالحرمة » ...

وهكذا شخصية الإنسان في الإسلام تتمتع بهذا الاستقلال الكامل ، وبهذه الحرية الكاملة التي لم يكن دونها للاختيار من قيمة والتي يقول القرآن الكريم من أجلها .

فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر (١)

ويقول :

وأن ليس للإنسان إلاّ ما سعى (٢)

ويقول :

ولا تزر وازرة وزْرَ أخرى (٣)

بل يقول محمد (صلعم) من أجلها وإظهاراً لهذا المعنى الاختياري :

« لا ذنب بعد الكفر »

بهذا تتحقق الإنسانية في الإنسان ...يأنس قبل كل شيء بالضمير الذي

---

١ — ٢٩/١٨ ٢ — ٣٩/٥٣ ٣ — ١٦٤/٦ — ٨/٣٥ — ٧/٣٩ ،

هو الواسطة بينه وبين الغيب . ويأنس بعد ذلك بما في الوسط ، ويأنس فوق كل ذلك بما حوله من عجائب الطبيعة ...

وهل يبقى سعة للإنسان من بعدُ في توسيخ الأرض بالمظالم ؟ وفي تضييق الصدر بالشحناء ؟ وفي إغراء النفس بالثورة ؟! ...

وإلاّ فهو حمار بوجه إنسان ... وما أخسر حماراً بوجه إنسان !

والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته ! !

« التطور »

كنا من قبل نناقش الأساتذة ونباحث الكبراء ؛ كنا ولم نزل نناقش البعض ونباحث بعضاً آخر ... وكانت كل هذه المناقشات وكل هذه المباحثات تدور حول كلمة « التطور » وكانوا حينئذ لا يفهمون من كلمة التطور إلا معنى الإلحاد والزندقة وإلا معنى الفسوق والذبذبة ...

كنا نرى دائماً في المعرفة ما نرى فيها من مصلحة ومصلحة كبرى للحياة البشرية ... ولكن كنا نرى فوقها أيضاً أن التطبيق هو روح المعرفة وأن التطور هو حقيقة من الحقائق التي تستولي على الإنسان وعلى المجتمع بل هو قانون من القوانين الطبيعية التي لا يمكن للانسان ولا للمجتمع أن يطغي عليها :

وتلك الأيام نداولها بين الناس :

أخنى عليها الذي أخنى على لُبَد

والآن أخذت الأساتذة وأخذ الكبراء تتوحش في عزلتها إما عجزاً وكسلاً وإما تؤخذ في رحلتها إلى دار الخلد ، يا سبحان الله !

ولم يبق للخلف بل لم يبق للإسلام العصري إلاّ أن يواجه المشاكل التي ستعرض لنا أو التي يتعرض لها ... إلاّ أن يواجهها بعقيدة وشجاعة ... إلاّ أن يواجهها بروح المخاطرة ؛ حيث أن التطور لا يعني انقياد الشباب إلى النظم الجديدة إلى كل النظم والتطبيقات الجديدة ... إنما التطور بسطة في العلم وبسطة في الجسم : وبسطة في العلم والجسم معاً ؛ هذا للثقافة الفكرية وذاك للرياضة الجسمية من دون إفراط ولا تفريط . واتخذوا بين ذلك سبيلاً — ولا فضيلة إلاّ في التوسط !

التطور هو أولاً تقديس المبادىء السماوية التي تتطلب منا الاستمرار في العمل والتي لم يكن ليضعها إلاّ أحكم الحاكمين . وثانياً استثمار الآيات التي نراها في الآفاق وفي أنفسنا – سنريكم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أن الحق (١)– وثالثاً أن نأكل من طيبات ما رزقنا الله – كلوا من طيبات ما رزقناكم(٢) – وأن نرعى الأنعام – كلوا وارعوا أنعامكم(٣) – وأن نعمر الأرض بالنبات والبناء – وجعلنا لكم فيها معايش(٤) ؛ وأن نحمي المجتمع بالخلق : (فسعوهم بالأخلاق) وأما بالحديد والنار الحديد – سرابيل تقيكم الحر وسرابيل تقيكم بأسكم(٥) ...

وما معنى كلمة التطور إن لم يكن هذا الترقي وهذا التدرج الذي يجعل النفس الإنسانية وهي تنتزع من نقائص المجتمعات وتجعلها وهي تنجذب من أقذار الحضارات ؛ هذا الترقي وهذا التدرج الذي يسميه لسان التربية : بطلب الكمال حيث أن طلب الكمال صفة من صفات الرقي الإنساني ولازم من لوازم تركيبه الروحاني والجسماني . . . ثم لا تتجلى الآيات ولا يحصل الاطمئنان واليقين إلاّ عن هذا الطريق – سأريكم آياتي فلا تستعجلون (٦) !

وشتان ما بين طلب الكمال وتنازع الحياة إلاّ أنهما فضيلتان طبيعيتان ؛ ولكنهما لعالمين مختلفين .

أما فضيلة طلب الكمال فهي فضيلة العالم الإنساني لأنها تلائم سموّ فطرته وتوافق جوهر عنصره .

وأما فضيلة تنازع الحياة فهي فضيلة العالم الحيواني بأسره لأنهم عائشون بهذا الدستور وهذا بالنسبة لهم فضيلة طبيعية مقيّمة لحياتهم ولا يصحّ أن نعبّر عنها برذيلة إلاّ بإضافتها للنوع الإنساني لأنها لا تليق به ولا تؤدي به إلى غايته التي خلق من أجلها .

---

١ – ٥٣/٤١ ٢ – ٨١/٢٠، ١٥٩/٧، ٥٧/٢ ٣ – ٥٤/٢٠
٤ – ٢٠/١٥، ٩/٧ ٥ – ٨١/١٦ ٦ – ٣٢/٢١

فكانت الأولى كما قال ذو العزة في القرآن الكريم :

فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة(١)

وكانت الثانية كما قال :

من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم وهم فيها لا يبخسون!

إلى هذا يهدف التطور الإسلامي بل إلى هذا تهدف الرسالة المحمدية ؛ هذه الرسالة التي نجحت في هذا المنهاج نجاحاً باهراً وجعلت هاتين القوّتين القوة الفكرية والقوة الجسمية لا تتصل الأولى إلاّ بالآخرة اتصالاً حيوياً ؛ بل جعلتهما لا يتعاضدان إلاّ بعضهما ببعض وتجد كلٌّ منهما في الأخرى ما يكفيها من الموادّ الغذائية التي تكسبها الحياة .

لا كما ترى في الأندية الثقافية المتحضرة التي تزود بالخلاعة والمجون أكثر مما تتزوّد بنتيجة العلم – ولا كما ترى في المساجد التي يبقى المصلون فيها وهم ما بين ناعس يستعجل الإمام ومصغ لا يستحضر الكلمات ومداعب يتخطّى الجماعة وهو لا يبالي بما إذا كان البيت بيت الله أو بيت العزّى ...

إلى هذا تهدي هذه الرسالة القيمة التي كانت مقدمة لعصر العلم وطليعة لدولة الحق وأساساً لسلطان الحكمة فقرّرت الناموس الطبيعي الكبير الذي اكتشفه الغرب بعدها بثلاثة عشر قرناً والذي يقال في حقه : « لا يبقى إلا الأصلح » وما معنى هذا التعبير حذاء الوصي السماوي الذي يقول : فأما الزبد فيذهب جفاءً وأمّا ما ينفع الناس فيمكث في الأرض !

وإلى يهدف القرآن وتهدف رسالة محمد (صلى الله عليه وسلم) ولمثل هذا فليعمل العاملون .

والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته !

---

١ – ١٤٨/٣ .

فلسفة العمل في الإسلام

إن للعمل لروحاً قوية في الإسلام وإنّ له في الرسالة المحمدية لفلسفة عجيبة روحاً وفلسفةً تستمدان من الإرادة ، ومن الإرادة الغيبية التي تخاطب الأشياء وتخاطب كلُّ شيء بهذه الكلمة الإجبارية : « كن » ! فيكون(١) ذلك الشيء ! !

ولأنّ العمل لا يكون إلا بالاستطلاع ولأن الأستطلاع لا يكون إلا بالمثابرة على الاكتشاف والاحتكاك بالحوادث أوجب الغيبُ على نَفْسِهِ أن يسدد خطى الإنسان في سبيل هذه المثابرة وفي منهج هذا الاحتكاك ..

ثم لا خطّ إذاً للإنسان خارج هذا وذاك إن لم يكن خط الخُسران — وذلك كما قال القرآن الكريم :

والعصر إن الإنسان لفي خسر إلاّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر ... (٢)

وكما قال برواية نبويّة :

الناس كلهم هلكى إلا العالمون والعالمون كلهم هلكى إلا العاملون والعاملون كلهم هلكى إلا المخلصون والمخلصون على خطر عظيم .

وذلك في الإيجاب والسلب ، وذلك في الكسب والإهمال .

---

١ — ١١٨/٢ ، ٤٧/٣-٥٩، ٧٣/٦ ، ٤٠/١٦ ، ٣٥/١٩ ، ٧٢/٣٦ ، ٤٨/٤٠ .

٢ — ١/١٠٣ .

لأن الإيجاب والسلب والكسب والإهمال قوتان متنازعتان إلى أقصى غايات التنازع وذلك لتبقى الحياة مستمرة خالدة بمضادّة بعضها بعضاً ... ولتتقد هذه التَوتُّرات التي تنجذب بانجذابها لوالبُ الحياة وتندمج باندماجها عجلات الكون ...

وما أحسن قول الشاعر حينما يشير إلى أن رسول الإسلام هو الروح القيمة في هاتين القوتين المتجاذبتين :

إن قلتَ في الأمر لا أو قلت فيه نعم
فخيرة الله في « لا » منك او « نعم »

ولا خطّ للعمل خارج هذا الإطار الايجابي والسلبي وذلك في الروحانيات والماديات ...

وذلك ما دامت الحياة تتحكم بقانون الأزدواج ؛ هذا القانون الذي يشير إليه القرآن الكريم بهذه العبارة القدسية :

سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون (١) .

وما دامت القوة تستوهب من تلك العناصر الأربعة التي لا تشكل الشهادة إلا منها والتي تبقى السبب الأول والأداة الوحيدة في تنظيم الحياة والمدنية ؛ هذه العناصر التي ترجع إلى الماء والهواء والنار والتراب!

وهل الحياة الأرضية خارج الاعتراف بالإرادة الغيبية إلاّ قبضة من تراب ؟ يقول في ذلك سبحانه :

يدبِّر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرُجُ إليه في يوم كان مقداره ألف سنةٍ مما تعُدُّن ذلك عالمُ الغيب والشهادة العزيز الرحيم الذي أحسن كل شيءٍ خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين ثم جعل (٢) نسله من سلالة من ماء مهين

---

١ - ٢/٦١ ، ٣٦/٣٦ . ٢ - ٣٢/٥ - ٦ - ٧ - ٨ .

ثم سواه ونفخ فيه من روحه :

ويقول :

عالمُ الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ولا اصغر من ذلك ولا أكبر إلاّ في كتاب مبين (١)

ويقول :

عالمُ الغيب والشهادة فلا يظهر على غيبه أحداً إلاّ من ارتضى من رسول(٢)

هذه العناصر التي لا تتحقق العمليات إلا إذا كانت مطبقة عليها وإلا إذا كان هذا التطبيق داعية من دواعي الإغناءِ والسعادة ...

بهذا يكون العمل كوارث طبيعي للعلم وتكون الحياة معه معنى من الاعتراف والإيمان بالغيب ... وبهذا يجهل الإنسان في العمل فضيحة الاستعباد وشر الاستغلال فيقول :

إن أخلصناهم بخالصةٍ ذكرى الدار وانهم عندنا لمن المصطفين الأخيار(٣)

ويقول :

من كان يريد العزة فللّه العزة جميعاً إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه (٤) !

بل بهذا يظهر للإنسان أن الأوامر والنواهي لم تكن إلى جانب العمل إلا كالسمادِ إلى جانب الزرع وأنها سر التوازن في هذه النفسيّة البشرية التي لا تقوم لها قائمة التربة إلاّ بالتوازن ...

هذا وبما أنّ المشقات التي تنفّر الإنسان من واجبات العمل ليست إلاّ بعض المصطلحات والعادات التي لا تغني عن العمل شيئاً .

فيقول :

يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر (٥)

---

١ – ٣/٣٤ ٢ – ٢٧/٧٢ ٣ – ٤٦/٣٨

٤ – ١٧/٣٥ ٥ – ١٨٥/٢

ويقول :

لا يكلف الله نفساً إلاّ وسعها (١)

ويقول :

وما جعل عليكم في الدين من حرج (٢)

وإذا لم يكن العملُ عبارةً عن الحرية وإشارةً إلى نوع من الكرامة ؛ فما هناك إلا الجهل ، وما هناك إلا التباب ... ولذلك يقول :

لئن أشركت ليحبطنّ عملك ولتكونن من الخاسرين (٣)

ويقول :

فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحاً ولا يشركبعبادة ربّه أحداً (٤)

ويقول في أبدع ما يكون من عبارة :

ولقد آتينا داوود منّا فضلاً : ياجبال أوّبي معه والطير وألنّاله الحديد أن اعمل سابغات وقدِّر في السرد واعملوا صالحاً إني بما تعملون بصير ، ولسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر وأسلنا له عين القطر ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفانٍ كالجوابِ وقدورٍ راسيات اعملوا آل داوود شكراً وقليل من عبادي الشكور (٥)!

تلك هي مجاري هذه العناصر تحيط بالشهادة وتحيط بالإنسان ... ويقول إشارة إلى شكلها الترابي :

ومن آياته أن خلقكممن تراب ثم إذا أنتم بشرتنتشرون.ومن آياتهأنخلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة ، إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون (٦)

ويقول :

---

١ – ٢٨٦/٢ ٢ – ٧٨/٢٢ ٣ – ٦٥/٣٩

٤ – ١١/١٨ . ٥ – ١٠/٣٤ – ١١ – ١٢ – ١٣ . ٦ – ٢٠/٣٠–٢١ .

إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملاً !! (١)

ويقول :

وترى الأرض هامدةً فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبت من كلّ زوج بهيج ذلك بان الله هو الحقّ . وأنه يحي الموتى ، وأنه على كل شيء قدير (٢)

وكما يقول إشارة إلى العنصر المائي :

وجعلنا من الماء كل شيء حيّ (٣)

ويقول :

وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها (٤) ...

وكما يقول في شكلها الناري :

الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فاذا أنتم من توقدون (٥)

وكما يقول مشيراً إلى العنصر الهوائي :

أو لم يروا إلى الطير مسخّرات في جوّ السماء (٦)

ويقول في حق نبيّه الملك سليمان بن داوود .

وسخرنا لهالريح تجري بأمر ، رخاء حيث أصاب (٧)

أن العبارات الموجودة في الكتب المقدسة لا تُعيِّن الحقائق إلا بقدر ما توافق هذه الحقائق تطور العقل البشري ، وإلاّ بقدر ما تنتظم مع مقتضيات المفاهيم التي تساير هذا التطور حيث أن الكتب لا تنزل بلغة الغيب ؛ إنما تنزل بلغات الأمم ووفق الادوات المنطقية والحوارية التي تستعين بها هذه الأمم على تحليل الغوامض التعبيرية وعلى تطبيقها وذلك في سبيل بناء المجتمع وفي سبيل الاحتفاظ بالمصالح .. بل وفي سبيل تعقُّل الآيات والرموز التي لا

---

١ – ٧/١٨ ٢ – ٥/٢٢ ٣ – ٣٠/٢١

٤ – ٦٤/٢ ، ٦٥/١٦ ، ٦٣/٢٩ ، ٤/٤٥ .

٥ – ٨٠/٣٦ ٦ – ٧٩/١٦ ٧ – ٣٦/٣٨

تتصل الشهادة باالغيب إلاّ بواسطتها فيقول :

سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم انه الحق (١)...

وسواء في ذلك ما جاءت به التوراة في عبرانيتها وما جاء به الزبور في سريانيته وما جاء به الإنجيل في أعجميته الآرامية وما جاء به الفرقان في عربيته ...

ليبقى كلام الله هذا المعنى القائم باليقين والذي هو مدلول العبارات الموجودة في هذه الكتب ؛ فيقول :

وانه لتنزيل ربّ العالمين نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربيّ مبين وإنه لفي زبر الاوّلين (٢)

وهذا بما كانت عليه الأمم من التفاوت في الفهم ومن التخالف في التعبير عن الغرض وفي تحقيقه فيقول :

قل يا قوم اعملوا على مكانتكم إني عامل فسوف تعلمون من تكون لـــه عاقبة الدار (٣)

يقول :

ولكل درجات مما عملوا وما ربك بغافل عما تعملون » (٤)

وتنقسم العمليات إلى ما تنطق به الألسنة وتعتقده القلوب وتعمل به الجوارح. وهذا لتتحقق الوحدة بين أجزائها ولو تنوعت العقول ولو تفاوتت المراتب .. وهذا لرفع الإنسان إلى مستوى رسالته الإنسانية ولرفع المجتمع إلى مستوى المصالح الدنيوية والأخروية . . . وهذا لإطلاق للشكر من هو الأساس في كل ذلك والذي يقول : هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونـه(٥) وهذا ليتخلص الانسان من براثن العادات وليعلم أن الحرية المطلقة لا توجد إلاّ وراء هذا الهدف الذي هو الاعتراف بالغيب وأنّ ما يُعْبدُ من دون الله

---

١ ــ ٥٣/٤١ ٢ ــ ١٩٦/٢٦ ٣ ــ ١٣٥/٦

٤ ــ ٣٢/٦ ٥ ــ ١١/٣١

فحجب جهنم ... وليعتقد فوق ذلك أن كل ما يشبه الاستعباد ليس من جنس هذا العمل الذي لا يعرف الذل ولا يعرف الاستكانة ولا يعرف الخشية ولا يعرف الانزعاج ولا يعرف الشك ولا يعرف إلا التفوق والمروءة بل لا يعرف إلا اغْراق الحوادث في بحر العمليات المفيدة ولا يعرف إلا مقابلة التساقط البشري باختراعات عجيبة وصناعات بديهة وتخلّيات راقية وتحلّيات قيّمة وتجلّيات بهيجة ..

وهذا لتبقى همة الإنسان مثلاً وأعلى مثل في تسخير الطبيعة واستخدامها رغم الثورات ورغم التوترات—وكان كما قال: من عمل صالحاً من ذكرٍ أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون (١)

وهذا لتكون الكرامات مصونة في الإنسان ولتكون الحقوق محفوظة في حياته بك وليكون هذا الانسان سيِّد الخلائق في الأرض وموضع الاحترام لذلك الملأ الأعلى ...

وهذا ما دامت الكرامات هي الكرامات وما دامت الحقوق هي الحقوق وإلا فكما قال الشاعر :

لئن كنتُ محتاجاً إلى الحِلْمِ إنني ... إلى الجهل في بعض الأحايين أحوج
ولي فرس للخير بالخير ملجَمٌ ... ولي فرس للشر بالشر مُسْرَجُ
فمن شاء تقويمي فإني مقوّم ... ومن شاء تعويجي فإني معوَّج
وما كنتُ ارضَى الجهلَ جداً ولا أباً ... ولكنّني أرضى به حين أُحرَجُ

ومهما يكن من امر ... فإن العطالة هي أم الجرائم وإنها الكفران بهذه النعمة العظمى التي تتطلبُ مساهمة الإنسان في تنسيق الاشياء في اصلاح الحرث والنسل ... وتتطلبُ منه الترفّع عن السفاسف والمحتقرات ليكون بينهُ وبين

---

١ – ٩٧/١٦

الغيب عهد وميثاق وليكون بينه وبين الغيب اتفاقيات معنوية وخلقية ومادية وليكون العمل عنده غريزة من أطيب الغرائز الموجودة في نفس الانسان — وليسلم من وبال الطرد وليتخلص من هذا الخذلان الذي يأتي بعد الانذار ويأتي بعد هذا القول العجيب الذي أدلى به القرآن الكريم عندما يخاطب المتعطلين :

قل أإنكم لتكفرُون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أنداداً ذلك رب العالمين وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتهـا في أربعة أيام سواء للسائلين ثم استوى إلى السماءِ وهي دخانٌ فقال لها وللأرض إئتيا طوعاً او كرهاً ، قالتا أتينا طائعين فقضاهن سبع سماوات في يومين وأوحى في كل سماء أمرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظاً ذلك تقدير العزيز العليم (١)

إن العطلة هي التي تحوّل الخير إلى الشر : تحوّل الذكر الطيب إلى الغيبة وتحوّل الشورى الى النجْوى وتحوّل المعاملة الحسنة إلى المخادعة وتحوّل التزاور الى التخالع وتحوّل النصيحة الى الاستغلال وتحوّل التساؤل الى التجسس وتحوّل المواخاة الى المحاقدة وتحوّل الكفاءة الى النزاع . وتحوّل العبادة إلى الإبادة بل وبعبارة أعم تحول الإنسان الى شيطان .

ولذا يقول رسول الإسلام (صلعم) إن المهلكات ثلاث : الفراغ الدائم والهوى المتبع والشح المطاع ، ويقول :

لأن يعمل الرجل بيده خير من أن يعيش عائلا على الناس ... ثم يذكر قول الله عز وجل في حق داوود عليه السلام :

اعملوا آل داوود شكراً (٢)

ويقول اليد العليا خير من اليد السفلى ويقول بعض الصحابة :

لو كان جَلَلُ هذا في سبيل الله !

---

١ – ١٢/٤١ ٢ – ١٣/٣٤.

فهذه هي روح العمل في الاسلام وهذه هي فلسفته في الرسالة المحمدية ...

ولا أظن أن في الحضارات والمدنيات ما هو أولى بالإعجاب من هذه المبادىء القيّمة التي خلفها الاسلام وخلفهما رسول الإسلام لاللمسلمين فحسبُ ولكن للخلق كافة ، يقول : وما أرسلناك إلاّ كافة للناس بشيراً ونذيراً (١)
ويقول :

إن هذا القرآن الكريم يهدي للتي هي أقوم (٢)وما اشد ضلال المنكرين والمترددين !

والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته !

---

١ - ٢٨/٣٤ ٢ - ٩/١٧ .

بين الروح والمادة

طفق تطوّر الفكر المادّي يلقي أسئلة مدهشة على الزعماء الروحانيين : هل هناك معنى للتطور المادي لانقضاء الدور الذي كان يجب على الدين أن يلعبه ؟

أليس معنى ذلك احتياج هذا الفكر الى تطبيق مبادئه على الامور الدينية ؟

أليس كلٌّ من ذا وذاك إلاّ اشارة بأن الروح دخلت في عهد الشيخوخة والهرم، ولم يبق لها الآن إلاّ أن تسلم الإمارة إلى أيدي المادّيين ؟ وذلك كما في قوله تعالى : « وتلك الايام نداوأها بين الناس (١) بل وبين الحقائق والاشياء ؟

كل هذه الاسئلة تتوارد على المفكّرين : على المتديّنين منهم وعلى الملحدين على الحكماء منهم وعلى الشعراء ...

فتضطرُّ الاجوبة الى إلقاء اسئلة اخرى :

هل الانسان مسلم الى افكاره ، وآرائه المتضافرة أم هو موجهٌ فيها توجيهاً غيْبياً ؟

وهل هناك إمكان تعايش سلمي بين الروحيّة والمادّية ؟

أليس هناك من حرب باطنية او ظاهرية بين الضدين ؟

إن الاسلام لم يزل يذكر بأن في هذه المرحلة التي هي احدى مراحل الحياة البشرية عناصرَ مختلفة يحتاج بعضُها الى الاعتماد على بعض ، بل يتعاون بعضُها

---

١ - ٣/١٤٠ .

ببعض ويتكفّل به روح تقوى بخلق وخلق يستفيد من مادة ومادة تسعى في سبيل الاغناء لكل هذا ومن ذاك – لتكون الحياة في الارض ، او ليكون الانسانُ فيها عبارةً عن ارادة تكوينية ، وإدارة تعليمية ؛ روحٌ ترتبط بأسباب السعادة وخلق ينطوي في طرفه على العزة ، ومادّة تزدهر في ظل العفاف ! فيكون الانسان شخصاً بثلاثة أشخاص – كلٌّ شخص منهم يلعب دوراً مهماً عندما تتحد مقتضيات هذه العناصر وتتميز خصائصها ويقول هذا التوجيه بلسان عربي مبين :

ربُّنا الذي اعطى كل شيء خلْقَهُ ثم هدى (١)

ويقول :

سبّح اسم ربّك الأعلى ، الذي خلق فسوّى والّذي قدّر فهدَى والذي أخرج المرعى فجعله غثاء أحوى (٢)

ويقول :

وربك يخلقُ ما يشاء ويختارُ ما كان لَهُم الخِيَرة (٣)

ويقول :

هو الذي يصوّرُكُم في الأرحام كَيْف يشاء (٤)

والحكيم البهي يُغلق على هذه الآيات فيقول :

« ليس الاسلام معادياً للعلم ولا للتجربة الحسية الآليّة التي يقوم عليها ، وليس مُعَادياً للصناعة ولا للتطور الصناعي ، انه يدفَعُ الى الامرين معاً » نعم ! وكيف لا يدفعُ الاسلامُ الى هذيْن الأمريْن معاً وهو لم يزل يعترف بأنّ الجزئيات تحتاج كل الاحتياج الى كليّة تأوي اليها في سبيل إرْتيادها للوحْدَة الإلهية ... بل لم يزل الاسلام يُفسر المجتمع بروح التعاون التي تتداعى من أجلها الحقائق ، لأن المجتمع بلا تعاون ليس بمجتمع – ولكن التعاون لا يُفْهم إلاّ عن طريق البرّ والتقوى ، لا عن طريق الإثم والعدوان ، ولا عن طريق

---

١ – ٥٠/٢٠ ٢ – ٣/٨٧ ٣ – ٦٨/٢٨ ٤ – ٦/٣

تعدد الآلهة الذي يجعل الشيطان ويجعل الهوى ويجعل الطمع آلهة مستقلاً بعضها عن بعض – والإنسان بينهم في أسوأ حالٍ من ذبذبةٍ او من اشراك ... فأن الشرك أخفٍ من دبيب النّمل او من دبيب الذرّ على الصفاة الملساء في الليلة الظلماء » .

وهذا الحكيم البهي يقول في ذلك :

«إن المعرفة الناشئة عن استخدام المقاييس الآليّة والعمليات الرياضيّة البحتة هي التي أخذت مفهوم « العلم » في الوقت المعاصر وهي التي تدعو اليها الفلسفة الواقعيّة ، والفلسفة المادّية ، على أنها الشيء الذي يجب أن يؤمن به الإنسان المُعَاصِرُ ، ويتخذَه إلهَهُ بَدلاً من إله الأديان في الماضي . ولذلك يَصحُّ أن يقال : إن الفلسفة المعاصرة هي فلسفة العلم وفلسفة الدعوة الى مُقتضيات العلم ... ولهذا يبقى الاسلام متميزاً بنظامه وبدعوته الى الايمان بالله قبل كل شيء » ، نعَمْ ويبقى الاسلام دليلاً على أن هذه المرحلة في الأرض ليست إلاّ إحدى مراحل الحياة، هذه المراحل التي تعد بالألوف وتعد بالملايين ، لا لشيء وحياة الانسان فيها حياة معرفة بجهاله : حياة فطرية بعقلية ، يقول التوجيه الغيبي في ذلك :

وما أوتيتم من العلم إلاّ قليلاً (١) .

ويقول معه الشاعر ، وإن من الشعر لحكمة :

فيكِ يا أعجوبة الكو ن غدا الفكرُ قليلا
انتِ حيرّتِ ذوي اللبـ ب وبَلْبَلْتِ العقولا
كلما أقدم فكري فيكِ شبراً فرَّ ميلا
ناكصاً يخبط في عمـ ياء لا يهدي السبيلا

وإلاّ فالانسان مسلّم إلى أفكاره المضلّلة والى هُوِيّاته المعطّلة : ينطق باسم الاشتراكية ولم تكن اشتراكيته حينئذ إلاّ شيئاً من خبال: ويسعى باسم

---

١ – ١٣/٨٥ .

الرأسمالية عندما تغدو رأسماليته نوعاً من وبال واستغلال ؛ ويعمل باسم الروحانية عندما لا تتجلّى هذه الروحانية إلا في سماء الخزعبلات والتقاليد ..

فإذا اخلّ الروحانيون وأخل الماديّون معاً بهذا النظام الحكيم الذي يتمشى عليه التوجيه الغيبي . فليس هناك إلاحرب باطنية أو ظاهرية بين العناصر بين المنظمات وبين الامم ؛ وليس هناك إلاّ حياةٌ لارجاء فيها لطمأنة النفس ولإسعاد الروح – لا سيما والتوجيه الغيبي يقول بكل روعة وإعجاب :

فلما أتاها نُودى من شاطىء الوادي الا يمن في البُقعة المباركة من الشجرة أن يا موسى إنني أنا الله ربُّ العالمين (١) ويقول :

هو أعلم بكُمْ إذ أنشأكم من الارض وإذ أنتم أجنة في بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً (٢) . ويقول :

قل الحق من ربكم ، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر (٣)
ويقول :

علمها عند ربي في كتاب ، لا يضل ربيّ ولا ينسى (٤)

هكذا الاسلام يأبى لمجتمعه أي هدف من الأهداف إن لم يكن هدفَ الوحدة في الايمان بالله جلّ جلاله ؛ في الايمان بالتوجيه الغيبي ؛ في الايمان بنتيجة العمل ما دام أساسه العلم ؛ ويقول في ذلك مخاطباً أبناء هذا المجتمع :

يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ور سوله والكتاب الذي نزل على رسوله والكتاب الذي أنزل من قبلُ . ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله ، واليوم الآخر فقد ضل ضلالاً بعيداً (٥)

بهذا يكون العمل نوعاً من التصور الواقعي الذي يُلحق الشهادة بالغيب

---

١ – ٣٠/٢٨ ٢ – ٣٢/٥٣ ٣ – ٢٩/١٨
٤ – ٥٢/٢٠ ٥ – ١١٥/٤—١٣٥ .

ويُرجع الفرع إلى الأصل ، بل الذي يعتبر تلك الصفات الكامنة كأخوات لهذه الصفات الظاهرة ــ فيقول تحديداً لهذا العمل أو لهذا التكليف :

ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلماً ولا هضماً (١)

ويقول :

فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا كفران لسعيه (٢)

ويقول

فمن أتقى وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون (٣)

ويقول :

وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبّئكم بما كنتم تعملون (٤)

ولو تضافرت العقبات ، ولو توفرت الحوادث في هذه المرحلة من حياة الإنسان ، لأن الوقوف على هذه الحدود يشير إلى أنّ هناك إرادة قوية أبدية تستلزم إرادة وقوة أخرى ما دام الإنسان في طريق العمل أو في طريق حياته الى الغيب« ليبلوكم ايكم احسن عملاً» (٥) ، «ونبلوكم بالشر والخير والينا ترجعون» (٦) .

بل يشير الى أن هناك السلوك العلميّ الذي لايكون العمل إلاّ بمقتضياته ، بل يقرّر ان هذه اللزومية تجرُّ ذيلها على كل فرد من أفراد الأمة المحمدية مسلماً كان أم مسلمة . ويحدّدُ لها بداية وغاية : فالبداية هي المهد والغاية هي اللحد ولا عطلة إذاً للجانبين إن لم يكن عطلة المنافسة والحوار ، حياة تجْري كلها بين حيطان المدرسة ، والمدرسة هو الكون ، والمدرس هو التوجيه الغيبيّ ،

---

١ – ١١٢/٢٠ ٢ – ٩٤/٢١ ٣ – ٣٤/٧
٤ – ١٠٦/٩ ٥ – ٢/٦٧،٧/١١ . ٦ – ٣٥/٢١

والطالب هو الإنسان المسلم . والدورس هي المشاكل بأجمعها علويّتهـا اسفليتها . أخرويّتُها ودنيويّتُها روحيّتُها ومادّيتها،ولا بطالة إذاً إلا للجانبين ،وللجانبين في ذلك حق الاحتفاظ والرعايةوحق المساهمةالدائمةالمستمرة .

والدعوة الى هذه الوحدة هي رسالة الاسلام ؛ وحدة في العلم ولو تعددت الوسائل ؛ ووحدةٌ في العمل ولو تنوعت الأساليب ؛ ووحدةٌ في التفكير ولو حتاجت الحريّة الى المناقشة والحوار ؛ ووحدة في اكتشاف الاعجوبـة الكونيّة ولو اختلفت العناصر ... ووحدةٌ في الأخوة ولو تشعّبَت الأجناس . وإلاّ فهو القضاء على الزوجيّة التي هي سرُّ الحياة الدنيا ، سرُّ عالم المحسوسات التي من أجلها يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبأعجب ما يكون من عدالة « إنَّ مَثَلي ومثَلَ الأنبياء كمثل رجل بَنَى بُنياناً فأحسنه وأجمله إلاّ موضع لَبِنَة من زاوية من زواياهفجعل الناسُ يطوفون ويتعجبون لهويقولون هلاَّ وُضِعَتْ هذه اللبِنةُ ؟ فأنا اللبنة ، وأنا خاتم النبيين ... »

وأمام هذه الوحدة ينبغي للروحانيين والماديين وللرجال كلهم أن يقولوا معاً :

ربنا إننا سمعنا مُنادياً يُنادي للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا (١)

ليكون الشرُّ معنىً من الخير ، ولتكون الحرب نوعاً من السلام وليبقى اللهُ إله الكون وفاطر السموات والأرض إلى أنْ يساق أهل العمل إلى «مقعد صدْق عند مليك مقتدر » (٢)

ثم لاَ زَلّةَ بعد التوبة : كتب ربكم على نفسه الرحمة أَنَّ من عمل منكم سوءاً بجهاله ثم تاب من بعد ، وأصلح ، فإنة غفور رحيم» (٣)ولا نجاة بعدَ الانكار وطائفة قد أهمتهم أنفسهم يظنون باللهِ غير الحق ظـن الجاهلية (٤) .. بل لا حكم اذاً إلاّ لله : ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تُظلم نفسٌ شيئاً ، وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين» (٥)وعلى الله قصد السبيل ولو شاء لهداكم أجمعين .

والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته !

١ — ١٩٣/٣ ٢ — ٥٥/٥٤ ٣ — ٥٤/٦ ٤ — ١٥٤/٣ ٥ — ٤٧/٢١

مفهوم الاسلام

إن مفهوم الإسلام لا يعني توقف التربية الإسلامية على الشعائر . . . كما لا يعني ترديد الصوت بالأراجيز ، ولا إحاطة الصدر بالسبحة ، ولا اعلاء الرأس بالعمامة ، ولا إشباع الحلقوم بالتجشآت .

ولكن مفهوم الإسلام نوعاً أسمى من كل نوعٍ في حياة الإنسان في المجتمع الأرضي – يقول القرآن الكريم في هذا المعنى النادر :

اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً(١) ويقول :

ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين(٢) ويقول :

إن الدين عند الله الإسلام (٣)

ويقول :

فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام (٢) .

ولكن مفهوم الإسلام ينبوع بل هو أطيب كل ينبوع ، تنبجس منه العلوم والمعارف التي من حظ الإنسان أن يستعين بها على تكوين شخصيته وعلى تنظيم هذه الشخصية وفق ترتب الحوادث وتتابع الشوارد ، ووفق طغيان المشاكل على الإنسان وعلى المجتمع ... هذه المشاكل التي إذا لم تُكنّف بالالآهيات فلا شك إنها تستعبد الإنسان وتقضي على كيان المجتمع ...

---

١ – ٥/٤　　٢ – ٣/٨٥،٥/٦　　٣ – ٣/١٩

ولكن مفهوم الإسلام عقيدة ومعرفة وتطبيق ... وهذا يتطلّب أن يكون الإنسان وهو في الأرض مواطناً سماوياً لا تمر عليه دقيقة من دقائق الساعة إلا ويدعوه فيها صوت من الأصوات الخفيّة التي لا يستمع إليها الإنسان إلا بواسطة أذن من الآذان الخفيّة لا بواسطة الشعائر يقول القرآنالكريم في ذلك:

وتعيها أذن واعية (١).

ويقول:

ليس البر أن تولّوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب، ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبين، وءاتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب وأقام الصلاة وءاتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون (٢)

وكانت هذه الصورة التي يعطيها مفهوم الإسلام للإنسان كمواطن سماوي لا تخرج عن حد تلك الصورة التي ترى في محمد (صلى الله عليه وسلم) المحارب الأول في جنسه والمشرّع الكامل في أمته والسياسي الماهر في رهطه والخطيب البليغ في جالسيه والصادق الأمين في وطنه والعاقل اللبيب في جماعته والحاكم العدل في ولايته والأب الشفيق في أسرته والرفيق البر في كنفه والشجاع المطمئن في شعبه والنبي الصالح في قومه والرسول المبعوث بالحق في جميع مناطق الأرض.

وكل هذا ليتحقق فيه مفهوم الإسلام ولتبتهج في نفسه صورة هذا المواطن السماوي الذي يدعى بالمسلم ... والذي يقول القرآن الكريم من أجله:

ما كان ابراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً (٣).

---

١ - ١٢/٦٩ ٢ - ١٧٧/٢ ٣ - ٦٧/٣.

ويقول :

وإذ قال عيسى بن مريم للحواريين مَن أنصاري إلى الله ؟ قال الحواريون نحن أنصار الله آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون (١)

ويقول :

رب توفني مسلماً وألحقني بالصالحين (٢) .

ويقول :

هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا ليكونالرسولشهيداً عليكموتكونوا شهداء على الناس (٣) .

وكل هذا ليعقِل المسلم أهمية هذه الرسالة التي يحملها عن السماء ويؤدي أمام سكان الأرض من بشير وغير بشير ، من دابة وشجر ، من ماءٍ ونبت ، من هواء ونار —

يقول :

خلق لكم ما في الأرض جميعاً (٤)

ويقول :

وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحين إلا أممٌ أمثالكم (٥)

ويقول :

وجعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه تعرفون (٦) .

ويقول :

ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات وليذيقكم من رحمته (٧) .

وغير هذا المفهوم الشامل فليس من الإسلام في شيءٍ ولو صلى المسلم ولو داوم الحج ولو صام ولو انفق ملء الأرض من الذهب —

---

١ — ١٤/٦١،٥٢/٣ ٢ — ٨٣/٢٦،١٠١/١٢ ٣ — ٢٦٠/٢٢
٤ — ٣٨/٦ ٥ — ٨٠/٣٦ ٦ — ٤٥/٣٠

يقول :

لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم (١) .

ويقول :

إن الصلاة تنهي عن الفحشاء والمنكر (٢)

وهذا ليبقي المسلم نموذج الخير والسعة ولتبقى الإنسانية محل التطبيق لهذه المعارف بل ولتبقى الأرض فراشاً مخصوصاً لهذا المواطن العزيز الذي يملك ما يملك بالنية الخالصة وبالعمل الخالص ... بل يملك ما يملكه بقانون من القوانين الروحية التي لا تصوت الجمعيات ولا تصوت الشعوب من تشريعها ... والتي من أجلها يقول القرآن الكريم :

من كان يريد العزة فإن العزة لله جميعاً (٣)

ويقول :

ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ٤) .

بل والتي من أجلها يقول الشاعر مخاعباً محمد (صلى الله عليه وسلم)

يا أبا القاسم الكريم المفدى	أنت في الحالتين أطيب طيِّبْ
قمت لله في الحياة شفيعاً	وشفيعاً بعد الحياة مهذبْ
وبدا في الأخلاق منك انسجام	وانسجام الأخلاق فخر مؤدّب
فحياة في ملة واجتماع	في طاعة واختيار لا يُخيّب
واحترمت ابن مريم كنبي	وابن عمران والخليل المصوّب
وجمعت الملوك تحت لواء	خضعا سجداً لربّ يغلب
صورة في البساط غارت عليها	رسل في السماء يا خير معجب

صلى الله عليك وعلى إخوتك الانبياء ورضي الله عن المؤمنين في جميع آفاق البلاد .

والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته

---

١ – ٢٢/٢٧   ٢ – ٢٩/٤٥   ٣ – ٣٥/١٠   ٤ – ٦٣/٨ .

وحول التجديد والتجدُّد في الاسلام يدور هذا الحديث الذي اجتمعنا بكم اليوم من أجله ، أيها السادة .. والذي لم يكن ليستغنى عنه المسلم في عصرنا الحاضر .

ونلاحظ أن الموضوع أوسع من الحديث فيه وأكثر انفساحاً من براهين المحدثين وهو فوق كل ذلك أبعد من آفاق المستمعين .

لأن التجدد سيشمل العبارات كل العبارات ، ويشمل الحركات كل الحركات التي تتعلق بحياة الإنسان على الأرض – لا سيما في أواخر القرن العشرين .

وخير ما يكون التجدد – هو كما ذكر في القرآن الكريم – : أن يتجرَّد الإنسانُ من اللباس الخلِق الذي يسمّى بالجهل والعادة ويلبَس هذا اللباس الجديد الذي يسمّى بالعلم والحقيقة ... وكان كما قال :

أنزل عليكم لباساً يواري سوآتكم وريشاً ولباس التقوى ذلك خير (١).. لا سيّما والتجدد له خياله الشعري ، ومنظره العمليّ ... إن كان خلقاً ، فيتم الخلقُ التجددَ . وإن كان تقليداً وبئس التقليدُ التجددَ يفهم من هذا أن هناك تجددا وتجديداً ...

وهذا أبو الطيب المتنبي يقول وكأنه لا يرمي التجدّد إلا في نفس التجرُّد من زخارف الحضارة :

---

١ – ٢٧/٢٥

ما أُوجهُ الحضر المستحسناتُ بهِ كأوجه البدويات الرعابيبِ
حسن الحضارة مجلوب بتطريـــة وفي البداوة حسن غيرُ مجلوبِ

ولا شك ان نهج القرآن الكريم في الاعتراف بالقيمة ، انسانية كانت أو روحية . هو أن تبقى القيمة في صفتها الأولى ، في صفتها الأصلية ... لا إذا كانت مفرغةً منها أو محوّلة عنها — يقول القرآن الكريم في ذلك :

وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم (١)

غير أن هذا التجرّد لا يعني تقاعد الإنسان عن العمل ولو باسم القناعة ، ولا يعني تحريم الطيبات من الرزق ... « شدوا على أنفسهم فشدّ الله عليهم » . « لم تحرم ما أحلّ الله لك» (٢)

ويقول الكاتب الفرنسي المشهور أندريه مالرو تعليقاً على بعض زملائه واصفاً بلداً من بلاد الإسلام :

« لا ورقة في الخارج ولا أثاث في الداخل ، ولكن هي الحيطان ، وهي السماء ، وهو الله ! »

وكأنه يتعجب من هذه البساطة ، لكنه يستنكر هذا التجرّد العادي الذي لم يكن إلا نوعاً من العجز .

وكل هذا دليل واضح جداً على ان الموضوع أوسع من أن يحاط به بسهولة . ولكن كيف نتردّد أمام سعة الموضوع ، وثقة الإنسان في الحياة أقوى من ذلك ... وهذا بعض مفكري البلاد يقول :

« فليسكُت العاقل عندما يتكلم السفهاء » ولكن كيف يسكت العاقل في هذا العصر الذي لا يتعرّف فيه الخير إلا إلى السفهاء ، ولو كانوا أبعد انسان من الخير ؟

---

١ — ٤/٦٣ ٢ — ١/٦٦

لاسيما وقد أقيم الكلام مقام العمل ووضع الخيال موضع الواقع بل جُعِل التشبه كأنه هو الحياة وكأنه هو كلّ شيء في الحياة ... يقول الشاعر :

فتشبهوا إن لم تكونوا مثلَهُم إن التشبه بالكِرام رَبَاحُ (١)

ما لم يكن التشبه هنا هو الاستمرار في التقليد الأعمى ... والا فالتشبه سبّةٌ وغضٌ من قيمة التجدّد .

هذا وإن الوسائل بل كل الوسائل تتجدد بتجدُّد العصور ...

ولكن هناك تجدداً آخر لا يقدسه إلاّ أنبياءُ النظريّات الهدّامة ممن يقودهم التجدد إلى الأنزعاج اكثر ممّا يقودهم إلى الاطمئنان ... إن التجدد تحت أمر الإنسان في كل عصر من العصور ، ووفق تطوُّر العقل البشري .

إنّه الإنسان نتيجة للإرادة الخلاّقة ، وإنه التطور نتيجة لتلك النتيجة : شيئان مزدوجان في إطار العالم الطبيعي وكأنهما شيء واحد ...

فحيـــاة بها ازدواج وارض أنت فيها بمُسْتَوى الإدراك

وبينهما هذا المعقول غير المعقول الذي يُسمى بالوحي والذي يقول في حقه القرآن الكريم :

« ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء» (٢)

بل والذي لم تكن الحروف الموجودة في الأرض لتُحيط بمسالكه العديدة ... وما الحروف إلى جانب هذا النور وجانب هذه المسالك إلاّ نقطة من بحر — يقول القرآن الكريم في ذلك :

قل لو كان البحر مداداً الكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مدداً . (٣)

---

١ — وروي : فلاح .

٢ — ٥٢/٤٢ ٣ — ١٠/١٨

بما أن مقابل هذا النور هو حب الاستطلاع كما ذكر المفكرون أو هو روح التجربة : هذه الروح التي تدعو الإنسان إلى تنظيم الأرض باسم الضمير العالمي.
يقول محمد (صلعم) في ذلك :

« الحكمة ضالّة المؤمن »

ثم لا حَرَج في هذا الحب ولا شقاوة في هذه الروح ..
بل ثم لا « جنسيّة » ولا « عقيديّة » لهما ..

إنه نور الله يهدي به من يشاء ... ولو عن طريق الإجمال ... إنه ذلك الوحي الذي يُخاطَبُ به الانسان ، لا بصفته كائناً حيّاً عاقلاً فحسب ... ولكن بصفته عضواً في المجتمع ، وبصفته أميراً ومنظماً لسائر الأجناس في الأرض ! وذلك إمّا عن طريق الأساطير — كما في القرون الأولى — وإمّا عن طريق السلوك والعمل ... يقول القرآن الكريم في ذلك :

وقالوا لولا نزّل هذا القرآن جملة واحدة كذلك لنثبّت به فؤادك (١)
(نتيجة ملموسه لما حققه سيدنا محمد (صلعم) بواسطة الوحي وبهذه الكيفية التي يختصّ بها القرآن الكريم .
ويقول :
ولا يأتونك بمثل إلاّ جئناك بالحق وأحسن تفصيلا (٢)
ويقول زميلنا العصري السيد عزيز الأحبابي :

« لا يكون الوحي وحياً إلاّ إذا كان في استطاعته أن ينتظم في سلوك الحوار المستمر والمتطوّر مع الإنسان ؛ وأن يساهم في تكوين شخصيته » .

وذلك لا يمكن إلاّ عن هذا الطريق الذي أشارت إليه تلك الآية الكريمة .
ويقول السيد أندره مالرو في ذلك استهزاءً بالمثقّفين الذين لا يفهمون هذا المعنى التدريجي في ساحة التجربة :

---

١ — ٣٢/٢٥ ٢ — ٣٣/٢٥

« ووالدي كان ينسى دائماً أنّ المثقفين العصريين أصبحوا جنساً مستقلاً ... وأن فكرهم يقبل السلوك المجرّد أكثر مما يقبل عملية الأختبار بل وأنهم يفضلون صحبة الكتاب على صحبة التجربة ... ولماذا لا ؟ والكتاب أخف على أيديهم من مسؤوليات الحياة على عواتقهم »

يصلح بالإنسان ما لا يصلح بالقرآن (١)

يعني ان عقل الانسان هو الذي يحتفل بمعاني الآيات ليطبقها على مقتضيات صالح البشرية في كل عصر من العصور .

بل يقول المفكر الألماني فريدريك نيتش :

« ليس من السهل ان يعفى عنك أيها الحكيم ، بسبب أنك تتراجع عن التنفيذ بعد القوة والاستطاعة . »

ويقول بعده الفيلسوف الفرنسي الكبير ألي :

« وفي ساحة العمل يكتشف الإنسان قوة إرادته ، وقوة حبه ، وقوة تعقله ، بل ومستوى كيانه ... وما هناك منهج آخر . »

على أنه هو الإنسان في ذلك غير مسلم للخلوة ولا للعزلة ... وذلك رغم الاحتكاكات والاضطرابات ... والقرآن الكريم يقول في ذلك :

هو الذي خلقكم وما تعملون (٢)

ويرى جميع مفكري التجدد أن هناك وحدة عجيبة بين الانسان والكون ، وأن هذه الوحدة تقتضي الاعتراف بوجود كائن عجيب ، شأنه الخلق ، وشأنه تنظيم ما خلق ؛ وشأنه تنفيذ إرادته في كل ما خلق ... يسمّى ذلك عند بعضهم بوحدة المنطق التي لا ترى في الامتيازات الكائنة بين علوم الطبيعية والعلوم الانسانية الا أمراً سطحياً .

---

١ ــ ورد في القول المأثور : يزع بالسلطان ما لايزع بالقرآن .

٢ ــ ٩٦/٣٧ .

بل يرى في ذلك جميع مفكري التجدد أن مشكلة الغايات هي بنفسها مشكلة العبوديات (الانسان مُيَسّر لما خُلِق له) كما ينطق به القرآن الكريم في هذه الآيات :

كل له قانتون (١)

وما من شيء إلا يسبح بحمده (٢)

يسجد له من في السموات والأرض (٣)

وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون (٤)

فانفذوا لا تنفذون إلاّ بسلطان (٥)

تلك هي مشكلة العبوديات بالنسبة للكون عامّةً وبالنسبة للانسان خاصة ؛ أو هي مشكلة الألوهيات بالنسبة لما واراء الكون عامة ، وبالنسبة لمن فوق الإنسان خاصة ...

وقد يفهمون من كلمة « السلطان » معنى القدرة العظمى التي تتصدر لوضع القوانين الطبيعية والى تنظيمها لإغناء الغايات والعبوديات .

يقول السيد أندره آمار تعليقاً على السيد جاك رويف :

« ليس في العالم أي حقيقة من الحقائق إلا إذا عرضت على العقل السليم فرأى فيها مجموعة من أفراد منتظمة بعضها في بعض . »

ويقول القرآن الكريم فوق كل ذلك : وإشارة إلى هذه القدرة :

« وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلاّ هـــو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلاّ يعلمها ولا حبّة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلاّ في كتاب مبين . (٦) »

---

١ — ٤٤/١٧ ٢ — ١٨/٢٢ ٣ — ٥٦/٥١

٤ — ٣٣/٥٥ ٥ — ٥٩/٦ . ٦ — ٥٩/٦ .

وقد ذكر بعض علماء الذرة في مجلة (بلانت) :

« فالذرة ليست بنتاً مفقودة لا أهل لها بل هي تنتسب إلى عائلة معينة ؛ إلى مجموعة مشكلة ... وهل معنى التشكيل هنا إلاّ مركز مواصلات . أو تأثير كل ذرة في سائر الذرات ؟ » .

وقد أصاب إذاً بعض من لا يرى التجدد إلا مرتبطاً بمشكلة الغايات التي هي مشكلة العبوديات — وإلا فهو شيء بلا غاية ؛ وإلاّ فهو نوع من الغرور ويقول القرآن في ذلك :

« ان الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له ، وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ، ضعف الطالب والمطلوب وما قدروا الله حق قدره . » (١)

وهذا السيد لويس بوفلس يعلق على شارل بواريه :

« لا بد من مواجهة الخطوة أو الوثبة الأمريكية بوثبة مثلها ... ولا بُدّ من القيام بإصلاح العملية الإنسانية ... نعم ! لكن ما هي الغاية النهائية في ذلك ؟ من أجل أن يكون كل إنسان أي شيء ؟ »

على أن هناك ما تشير إليه الكتب المقدسة باسم القدر :

إنا أنزلناه في ليلة القدر (٢)

يعني الوحي — لكن بصفته مجتمعاً وحضارة ؛ ولا ينحصر ذلك في ليلة ما ؛ بل يريد بذلك أن الاعتراف بالقدر عزة وكرامة للإنسان :

من كان يريد العزة فلله العزة جميعا (٣)

ويقول السيد اندره آمار دفاعاً عن موقف التعاليم المسيحية أمام مقتضيات التجدد :

---

١ — ٢٢ / ٧٣ . ٢ — ٩٧ / ١ . ٣ — ٣٥ / ١٠

« فالإنجيل القديم المقدس لم يكن كتاباً من الكتب التاريخية ولا مشهداً من المشاهد العادية ؛ إنما هو قانون ... وأي قانون ! يحدد للانسان كل ما يتعلق بمقدرات حياته . ويحدد له روح كيانه . وإذا حاول الإنسان ان يتخلص من هذه المقدرات ومن هذه الروح التي تدعو إلى غاية من الغايات ، فما هناك الا سخافة وضلال . »

فمثل الإنسان غير المعترف بالقدر ، كمثل الكلب :

« إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث » (١)

ثم لا يعني ارتباط التجدد بمشكلة الغايات وفي الحرية عند الانسان . فإن الانسان الحر هو الذي ينقاد عقيدة وعملاً إلى ما يدخل الانسجام في نظام الأشياء – لاسيما في نظام الكون ! وبذلك يرضي الالهيات كمعترف بها بالكمال التام :

أدَّبني ربِّي فأحسن تأديبي .

وهذا الحديث النبوي الشريف يشير إلى هذا المعنى السامي من الانقياد ومن الارتباط بمشكلة العبوديات ... وذلك إما بمستوى الطبيعيات ، وإما بمستوى الإنسانيات .

أدبني ربي فاحسن تأديبي ... نعم إذا حسن الأدب حسن الفهم . وإذا حسن الفهم سهل به الانقياد ... وبسهولة الانقياد ينتفي التثاقل وينتفي معه الشك – فصارت العبوديات كأجهزة منسجمة سواء في نظام الطبيعيات أو في نظام الإنسانيات ... وعلى هذا يتّفق المتجددون من علماء .

يقول العالم الطبيعي الكبير السيد ألبير ديكروك :

« والجهاز كمُعَبِّدٍ لبذور الكيان فهو المعنى المقبول لتقوية النظام ولإنعاشه»

ويقول القرآن الكريم فوق كل ذلك :

---

١ – ٧ / ١٧٥ .

ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن (١)
ويقول :

لو كانت فيهما آلهة إلا الله لفسدتا (٢)

يعني من أجل الأهواء البشرية ... ولولا هذه الأهواء التي تسيطر على الجنس الانساني لتمكن علماء التجدد من أن يحققوا الوحدة العلمية والعملية التي لا يتحقق السلام في العالم إلا بها . والتي تقتضي من العواطف ما تقتضيه من الجوارح ؛ هذه الوحدة التي ترتكز حول هذا الخطاب الغيبي :

خذِ الكتاب بقوة (٣) .

على أن العلم يوجد بالجد والثقة ... ثم يُتبع ذلك بهذه الكلمة التي هي الغاية في العلم والتربية :

وآتيناه الحكم صبيّاً وحناناً من لدنا وزكاة (٤)

هذه الوحدة التي تمنع علماء التجدد من التحول إلى جنس من عفاريت والتي تضمحل أمامها العنجهيات ويضمحل معها كل اسباب الطغيان — لاسيما والقرآن الكريم يذكر أن كل شيء في الحياة«إن هو إلاّ متاع إلى حين »(٥) كما يذكر مخاطباً العلماء بهذه الآية :

وما أوتيتم من العلم إلاّ قليلاً (٦)

وهذا السيد بيري كومّونار يقول ، رداً على العفاريت :

« نعم ! ولقد عرفنا واتصلنا بقواعد الكيمياء الوراثية ، واستطعنا بواسطة هذه المعرفة وهذا الاتصال ان نفرض على أنفسنا السيطرة — الرقابة على الحياة — وهذا يعني أننا تقدمنا تقدماً عجيباً في ساحة التجربة من دون أن نعقل كل ما في ذلك من خطر ...

---

١ — ٢٣ / ٧٢ ٢ — ٢١ / ٢٢ . ٣ — ١٩ / ١١
٤ — ١٩ / ١١ . ٥ — ٢ / ٣٦ ، ٧ / ٢٣ ، ٢١ / ١١١ ٦ — ١٧ / ٨٥

ونعتبر أن هذه الحالة التي كونها العلماء أنفسهم مما لا يقبله المنطق السليم . فيجب اذاً على كل إنسان أن يتنبّه إلى ذلك .. »

ولكنها الأهواء البشرية هي التي تثور دائماً على دوافع الانسجام وعلى وسائل الخير والسلام :

« ولا يزالون مختلفين إلاّ من رحم ربك ... » (١)

لاسيما والانسان قد وجد الكون تحت هذا الأمر الذي يتطور به كل شيء يقول القرآن الكريم :

« هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً ...» (٢) ؟ ولم تكن إذاً مساهمة الإنسان في تطوير الكون إلا بقدر ما يعترف بمشكلة الغايات

ويقول السيد ميرلوبونتي في كتابه روح الإدراك :

« والعالم موجود قبل كل دراسة تحليلية ... والتحليل إذا بالنسبة للعالم أمر سطحي : إننا نحاول أن نصور الحقيقة وليس باستطاعتنا أن نخلقها — لانا وجدناها كما هي عليه . »

هذا وإن العبوديات تنقسم إلى علويات وسفليات : الأولى تحت سيطرة من السماء ؛ والأخرى تحت رقابة من الأرض — يقول القرآن الكريم في ذلك :

« اطيعوا الله واطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم . » (٣)

والرسول هنا هو الواسطة بين السلطتين أو بين الإلهيات والعبوديات ...

ففي هذه السفليات يكون الإنسان حراً وأميراً ومنظماً ...

يقول القرآن الكريم في ذلك :

ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ، ورزقناهم من الطيبات ، وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا (٤)

---

١ — ١١ / ١١٩ . ٢ — ٧٦ / ١

٣ — ٤ / ٥٨، ٥٩ / ٢٤، ٥٤ / ٤٧، ٣٣ / ٦٤ . ١٢ ٤ — ١٧ / ٧٠ .

ويقول :

والأرض وضعها للأنام . فيها فاكهة والنخل ذات الأكمام (١) .

ويقول :

هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً (٢)

وبواسطة السفليات يدرس الإنسان كل قضايا الحياة ويساهم في تحصيل الحل لها ، مساهمة تكون كمقابل لهذه الكرامة ؛ فتلك المساهمة التي تسمى بالطاعة والتي تتراوح فيما بين الأمر والنهي – يقول المؤدب الفرنسي الكبير السيد ألين فيها :

« إن الأمر يعود إلى تقدير الجهود التي قام بها عظماء الإنسانية ؛ والمشكلة مشكلة عدم الكفران بالنعمة التي صدرت من هؤلاء العظماء ؛ والمشكلة مشكلة إخلاص الحب لمن يستحقون الحب من اشباهنا ؛ وخصوصاً للفكر البشري المتطور .

ويقول زميلنا السيد عزيز الأحبابي :

« كانت الخطوة الأولى تقودنا من الغيب إلى الشهادة ؛ والآن لقد حان لنا ان نخطو خطوة جديدة ترشدنا من الاكتشافات الدنيوية إلى خالق الدنيا ؛ وذلك بالصحبة مع إخواننا وأشباهنا ... اعترافاً بوحدانيته تعالي قبل التحنثات التقليدية ... ليعتبر الانسان نفسه كأداة من الأدوات التي تحتاج إليها الأرض للانتظام في سلك الحياة الحقيقية ؛ وليبقى الانسان إنساناً على كل المستويات – احتفاظاً بقيمة العمل . فبواسطة هذا العمل يجتمع الانسان بالإنسان . فتتكون بذلك العلاقات الجيدة التي تربطهما بالله ! »

وعلى هذا المنوال يجري ذلك البحث الذي أعلنته في هذه الأيام المجلة الفرنسية العالمية الكبيرة باريس ماتش ويعدّ تعبيراً عن القلق السائد عند زعماء

---

١ – ٥٥ / ٨٦ . ٢ – ٢٩/٢

المسيحية ؛ ذلك البحث الذي يقول فيه السيد جاك دي كين :

« المسيحيون لا يقبلون اليوم الانتساب إلى هذا الرهط المنعزل الذي يسمى بالرهبانية ، والذي كان أشبه شيء بهيكل اجتماعي فرضته على الناس حقائق التاريخ ، والذي أصبح اليوم مغايراً للمقتضيات الحالية ، بل ولتعاليم الأنجيل »

ولكن ما قاله القرآن الكريم في ذلك أولى بالذكر :

ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلاّ ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم وكثير منهم فاسقون . (١)

هكذا السفليات من العبوديات تدعو الانسان إلى حياة اجتماعية خيرة ، ثم إلى موت اجتماعي خير ... ولا أماني وراء ذلك :

يقول القرآن الكريم في هذا الصدد :

خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً (٢) .

أخرج الإنسان من حالته الجوهرية المتجردة إلى حالته المادية المحسوسة لحكمة يعيّنها ويسمّيها بالعمل أو بالابتلاء ..

ويقول :

ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب : من يعمل سوءاً يجزبه (٣) .

ويقول :

للذين أحسنوا الحسنى (٤) .

ويقول :

للذين أساءوا السوءى (٥).

والعمل هو كل شيء في الحياة الاجتماعية للانسان كما في هذه الآيات القرآنية ... الإنسان بلا عمل غير ممكن ؛ إما أن يعمل عملاً حسناً أو عملاً سيئاً :

لمثل هذا فليعمل العاملون (٦) .

---

١ - ٥٧ / ٢٧ . ٢ - ٧ / ١١ ، ٦٧ / ٢ ٣ - ٤ / ١٢٢ .

٤ - ١٠ / ٢٦ . ٥ - ٣٠ / ١٠ ٦ - ٣٧ / ٦١ .

ويقول السيد اندري آمار معلقاً على السيد جاك روويف :

« وحضور الإنسان في المجتمع لا يساوي أي حضور آخر كحضور خشبة الكبريت في العلبة ؛ لأن الأول متحرك فعّال . ولفظ الكيان بالنسبة للانسان شيء يستحق به أن يجري مجرى العمليات النافعة » .

ولذلك يسمى الفرد بالإنسان ، ويسمى الأفراد بالأمة ... وإلاّ فما هناك إلاّ إخلال بنظام الطبيعة والإنسانية .

واذا كان العمل مرادفاً للابتهاج الحلال فهو العمل وإلا فلا شيء .

يقول السيد الين في ذلك :

والآن نعرف ــ بناء على هذه المعطيات ــ أن الابتهاج والسرور في إطار الحلال هو روح العمل .

ويقول السيد عزيز الأحبابي تعليقاً على ما ذكر القرآن الكريم من السير على الطريق الوسط :

« والطريق الرئيسي الذي يقود إلى التجديد الحقيقي يوجد على مفترق فكرة الحق والنفوذ : تعاليم دينية مناضلة تعطي الإنسان نصيبه من الحياة المادية . وحكمة تدعو إلى التطبيق المستمر ، وذلك بالنسبة للحقائق الحاضرة التي تستنير بروح الحق الذي هو الله عز وجل !

فإن السنة المؤكدة للإسلام تبقى إذاً المادة المغذية التي تمكن التقاليد المكتسبة من أن تزدهر وتحمل معها حقائق المستقبل . »

يقول القرآن الكريم في هذا الأسلوب العجيب :

« وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ، ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ... » (١)

فإذا كان العمل صالحاً نافعاً فهو حسن ، وإلا فسيء ...

---

١ ــ ٢٨ / ٧٧ .

وعلى هذا الأساس يبني الإسلام شريعته المطهرة السمحاء ؛ هذه الشريعة التي لا يمكن للتجدد أن يتجاهلها ولا أن يتجاهل كل ما فيها من صالح البشرية – لا سيما وقد قيدها الرسول عليه السلام بكلمة لا أرى بين المشرعين رجلاً يقوى على الإتيان بمثلها :

لا ضرر ولا ضرار .

هذه الكلمة جعلت شريعة الاسلام تتجدد في كل يوم ويتجدد معها صالح الأمة ... لا ضرر في الأحكام ولا ضرار في المحاكمات ، من يوم بعث محمد (صلى الله عليه وسلم) إلى اليوم الذي « لا ينفع مال ولا بنون إلاّ من أتى الله بقلب سليم» (١)...تطبق النصوص على المصالح وتطبق المصالح على كلمة « لا ضرر ولا ضرار » لئلا ينقطع اتصال الخلف بالسلف .

هذا الاتصال الذي يكون إما عن طريق القياس المستمر ، وإمّا عن طريق التزاور المعنوي الذي يسميه بعض الشعراء بالخيال ؛ تقول الفيلسوف الألماني كوته :

« هذا الخيال الملكوتي الذي ينهار في الحال عندما يحضر خادم من الخدام »

هذا الاتصال الذي ربما ذهب بالانسان العادي الى توسيخ الإلهيات وإلى إقامة الأوهام موضع الحقائق – يقول محمد (صلعم) في ذلك :

« لعن الله قوماً اتخذوا قبورهم مساجد ... »

ويقول الأستاذ مالْرُو ، حكاية عن ما رآه مكتوباً على حائط من حيطان دار الآثار في القاهرة :

« ولقد استطاعت مصر أن تستعيد المقدسات الفائتة إلى الحياة ، بواسطة استمرارها في الصلوات ... ولكننا نحن نحاول استعادتها إلى الحياة ، بواسطة أخرى : بواسطة الشكل والأسطورة – من دون أن يكون هناك أي إتصال بالصلاة ! »

---

١ – ٢٦ / ٨٩ .

وعندما يتكلم عن الأموات يقول :

« وبعدهم ، يملك الأرض اله آخر ، إله التغيرات الشاذة ... هذه التغيرات التي ترى في الآثار دولة للموت لا موضعاً للذكرى والتنسك ... »

« فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات ...»(١)

وبكل ما ذكرنا يكون الإنسان مركزاً للعالم الحقيقي ؛ بل وبكل ذلك يكون هو العالم الحقيقي في هذا العالم الطبيعي ... وإلاّ ، فما هناك إلاّ متاع الحياة الدنيا ؛ وما هناك الا زخرفات القول : وما هناك إلا شح مطاع ، وما هناك إلا النزاع والفشل ؛ وما هناك إلا أسباب الخوف والانهيار :

وليس وراء الله للمرء مذهبُ (٢) .

ويقول السيد لويس بوفيلس ، تعليقاً على السيد شارل فورييه :

« وحضارتنا مؤسسة على الافتراق المجبر : تفرق بين الانسان ونفسه ؛ وتفرق بين المجتمع والقوانين الطبيعية ، المنسجمة التي تنفعل بالجذب الالهي ، لا بمكيدة من الانسان . »

ويقول فوق ذلك القرآن الكريم :

« أولئك الذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم ... » (٣)

ويقول :

« وإنا لا ندري أشرٌّ أريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربهم رشدا ! » (٤)

ويقول السيد لويس بوفيلس أيضاً في بعض تعليقاته :

« العالم العصري يعلم اليوم أن الثروة الاقتصادية شيء جيد ، ولكنها لا

---

١ – ١٩ / ٥٩ .

٢ – هو عجز بيت للنابغة الذبياني قاله للنعمان بن المنذر معتذراً :

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة وليس وراء الله للمرء مذهب

٣ – ٥٩ / ١٩ . ٤ – ٧٢ / ١٠ .

يمكنها الحصول على الحل عندما تجابه قضية الحياة الفردية ، والعقلية ، والعاطفية .

وتحت سلطة المهندسين المتحررين منهم والماركسيين غالباً ما يكون أن الحياة في أعماقها وفي هويتها لا تكون إلاّ جرحاً من الجروح القاتلة ؛ وضيقاً حرجاً ، وتسفيهاً وتفرغاً ... »

ولكن هي الثقة برسالة الإنسان في الارض ؛ ما هي إلاّ تكميل للنقائص بالحب ... وكيف لا تكمل النقائص بالحب وقد ذكر الرسول أنه لا يكمل الإيمان الذي هو أساس الحياة إلاّ بالحب ؟ (١) وهذا بالنسبة للكون عامة وللإنسان خاصة ...

وهذا رسول الإسلام يخاطب المسلمين في حجة الوداع فيقول :

« فاتركوني ما تركتكم ... لقد بينت لكم الحلال والحرام ... » (٢) يعني : أما ما وراء ذلك فهو عهد واتفاق بينكم ، وحكم يُدلى بين الالهيات والعبوديات ، وإخاء وتحابب !

فالانسان أخو الإنسان ... والإنسانية تلزم الحب أمام النقائص ؛ فتتحول النقائص إلى كمالات : يتحول الضعف إلى قوة ، والخوف إلى أمن ، والاستكانة إلى طاقة .

وإلاّ فهو نابليون يقود العساكر لاذلال الأرض وللسيطرة على أبناء البشرية ... وإلا فهو الاسكندر الأول يصرخ أمام الجنود لتنحط له الجبال والسماء ؛ وإلا فهو قيصر الروم يحملق لتخضع له المناطق والقارات ... وإلا فهو أدولف هتلر يلقي ، بواسطة الموجات اللاسلكية والمكبّرات الصوتية ،

---

١ – يشير إلى قوله (صلعم) لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه .

٢ – انظر حجة الوداع لابن حزم الاندلسي تحقيق الدكتور ممدوح حقي .

تلك الخطابات التي يؤيد كلٌّ منها بهمهمة الدبابات ودوي الطائرات وفرقعة القنابل ...

لكنهم جميعاً غاية الأمر ، الأسكندر بين أيدي غاسليه لا صراخ لـــه ولا حركة ؛ وقيصر الروم ينقلب تحت أوجاع الإخفاق ، وكأنه طفل أصيب بالحمى ... ونابليون في سانت هلين يناجي الغمران تارة ويفكر تارة في مـــا سلف من دهره – وأدولف هتلر يتردد بين الفرار والانتحار !

واذا لم يكن كل ذلك داعية بل هي أقوى داعية من دواعي التحابب أمام مقتضيات الحياة والتجدد كما ذكرت الكتب المقدسة ، فبئس ما صنعت الحياة وبئس ما ذهب اليه التجدد بالانسان !

والسلام على عباد الله المخلصين !

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على سيدنا محمد النبي الامي وعلى آله وصحبه !

مساهمة الاسلام في تنظيم الحضارة العالمية !

هذا وإن الموضوع يتطلب منا ومنكم ومن كل واحد ، ايها السادة ... يتطلب من المجهودات ما لا يتسع الوقت في بذله ...

ولقد وجدنا الاسلام ووجدنا المسلمين في السنغال احوج ما يكون كل واحد منهم إلى البحث في هذه المشاكل التي تهم الضمير العالمي !

ولعلنا ، بسابق مشيئة من ذي العزة وبروح من التوفيق الالهي ، نتمكن ان نتحدث معكم فيها . مشكلة بعد مشكلة ، لنعرف وليعرف كل واحد كيف نقدّر هذه المساهمة ان كانت هناك مساهمة ، او كان هناك تقدير .

لاسيما ودعوة الاسلام ليست دعوة عربية او عجمية ولا دعوة شرقية أو غربية ... إن دعوة الاسلام لا تختص بلون دون لون ولا بجنس دون جنس ... ولا ببلد دون آخر .

بل هي دعوة عالمية تفرغ العقائد ، وتفرغ العلوم ، وتفرغ كل اسباب الحياة في قالب التوحيد والتقديس ؛ تفرغها في قالب الآية الكريمة التي تقول :

ربّنا آتنا في الدنيا حَسَنَةً وفي الآخرة حَسَنَةً (١)

---

١ - ٢ / ٢٠١ .

كما تفرغها في قالب هذا الحديث النبوي الشريف الذي يقول :

نِعْمَ المالُ الصّالحُ للعبدِ الصالحِ

يقول السيد لويس غاردیه في كتابه معرفة الاسلام :

« إن الاسلام يتجلى كفكرة عالمية تصلح لكل إنسان ولكل أمة ... »

إن هذه الدعوة مكنت الأديان الاولين من تطبيق هذا المبدأ العجيب الذي يعود إلى إحدى الحسنيين :

إن هي الا إحدى الحسنيين

إمّا الموت في سبيل العزة والشرف ؛ وإما النجاح لتعلو كلمة الله وليسود العدل أمام الظلم ، أو ليسود الحب أمام السلطة .

لكن الاسلام يرى قبل كل شيء ان يكوِّن ذلك الإنسان المثالي الذي يعيّنه ويطلق عليه اسم المؤمن ... الذي من أولى واجباته أن يساهم ، بكل ما لديه ، في تنظيم الحضارة العالمية وما وراءها إلا الغيب ... وذلك حينما يستوجب الغيب على نفسه استمرار رسالة العلم والخلق وبثها في المؤمن ، واستمرار رسالة الانسان نحو الحضارة ؛ يقول القرآن الكريم في ذلك :

إنا نحنُ نزّلنا الذكرَ وإنّا له لحافظون (١)

يعني العلم والخلُق — ويقول :

وما أرسلنا من رسولٍ إلاّ ليطاع بإذن الله (٢)

تلك هي المعجزة الاسلامية التي لم تنشأ إلاّ من هذا الحفظ الرباني ولا ترجع إلاّ إليه ! انه تعالى هو المنزّل للذكر على درجات متفاوتة ؛ وإنه المسّير للتاريخ على نحو ما يحتاج إليه التاريخ من التيسير ، وعلى نحو ما ينبغي للإنسان ان يقوم فيه بدوره وهو اهم دور !

ذلك الإنسان الذي ينبغي أن يكون له في رسول الله أسوة حسنة والذي لا

---

١ — ١٥ / ٩ . ٢ — ٤ / ٦٣ .

يطبّق الآراء ولا يطبّق العلوم والمبادىء الاعلى هذه الفكرة الغيبية المقدسة المعيّنة باسم القرآن الكريم ...

وهل القرآن الكريم إلا عبارة عن هذه الفكرة التي بلغت بها اسباب التطور ان لا تعترف إلا بالعلم والخلق ، وإلا بالعلم والخلق وحدهما ؟ .

وذلك لكي لا تذهب المعجزات بالحقائق . ولكي لا تصبح الأرض موضع التجاهلات دون الاكتشافات .

يقول السيد بول ساليس معلّقاً على الكتاب الذي ألّفه السيد كود فروي في حياة محمد :

« ولم يزل محمد يرفض ضروريّة المعجزات — نعم كان يعترف للأنبياء بإظهار المعجزات ، وخصوصاً لعيسى بن مريم ... ولكن هو نفسه لم يأت إلاّ لإعلاء كلمة الله التي سوف يجد الانسان فيها الآيات البينات ... هذه الآيات التي يحتاج إليها عندما يطالب عقله وقلبه بالإيمان . ومن الممكن أن يقال إن التزام المسلم بالسلوك في طريق القرآن الكريم يقوم مقام إيمان المسيحيين بالمعجزات ...

فالقرآن والترتيل هو روح الترابط بين المسلمين ؛ وبه يكون الترابط بينهم وبين الملك الغفار ...

ولا بد لنا أن نردّد بأن الكيفية الجذّابة التي تتجلى فيها هذه الكلمة العديمة النظير . والشعور الودي الذي تغرسه في نفس المُرتِل ، والقوة المعنوية التي تزوّده بها والتي تنبعث من الغيب إلى الشهادة . فهاهنا المعجزة الوحيدة التي تنطق بان رسالة محمد حق وأن دعوته حقيقة لا محيد عنها ... ويتابع قائلاً :

إن تجربة محمد كانت من أحسن ما يكون من تجاريب الإنسانية — ولذلك كانت بعثته سبباً لأعظم ما يكون من المسبّبات التاريخية . »

وكيف تُنظّم أية حضارة من الحضارات دون ان يساهم في ذلك إنسان من البشر ؟

وكيف يساهم الانسان الا قدر ما تسوغه له المبادىء ، وتطيب له الحركات؟

يقول القرآن الكريم مخاطباً هذا الإنسان ومقدّساً مبدأ العمل :

فإذا افرغتَ فانصبْ ! (١) أي إذا افرغت من عملٍ ، فانصب في عمل آخر – وإلى ربك فارغب .

بل يقول الزعيم السنغالي الكبير الشيخ الحاج مالك سي :

« إن الفراغ هو روح الجرائم . »

وهذا سيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم) يقول ، إنكاراً على ما يرضى به الإنسان الريفي من الإعراض عن واجبات التربية وعن أسباب العمل المعقول :

« مَن بَدا جَفا »

يعني ان في الرضى بالبداوة هو الرضى بالجفوة نفسها . يبدو من ذلك اهتمام الحضارات بإنقاذ الإنسان الريفي من العواقب الوخيمة العقيمة !

وهذا السيد هنري ديفيد تورو يعترف بإيجابية هذا المبدأ حين يقول :

« إن تربية كل انسان لا تكمل أبداً ... وإن من المستحيل ان تتحوّل القرى والأرياف إلى جامعات – لنشر مبادىء التربية . »

وكان يكتب كذلك فيقول :

« إن أي نظام وأي سلوك ، مهما بلغت به السلامة ، لا يمكنه أن يقوم مقام الاستمرار في التيقّظ . »

وفي هذا المعنى العظيم ، يقول القرآن الكريم :

لا تدخلوا من باب واحدٍ وادخلوا من أبواب متفرقة

* * *

---

١ – ٩٤ / ٧ .

إن مشكلة الحضارات اذاً ؛ هي مشكلة الناس ، ومشكلة الناس هي مشكلة المبادىء ، ومشكلة المبادىء هي مشكلة الحركات التي بها يتمكن البشر من التعبير عن مقتضيات الزمان – ومن تطبيق المبادىء ، وفق هذه المقتضيات ...

« إنّ العارف من عرف بمقتضيات الزمان ... » وسير الانسان لا يكون الا بسير الزمان ! .

فالمشكلة ليست مشكلة حرب ولا مشكلة سلام ولا مشكلة سياسة ولا مشكلة اقتصاد ولا مشكلة عمل – ولكنها مشكلة إنسان يكون باستطاعته أن ينظّم الحضارة لصالح الأرض ، ولصالح سكانها البشر ... وإلا ، فالسياسة هناك خداع ، والاقتصاد وسيلة إلى الاستغلال ، والعمل نوع من الظلم ، والحرب نتيجة من نتائج البغي ، والسلام سبب من أسباب الدعة – ثم لا حضارة اليوم إلاّ ما عليه القوى من الطيش والحيرة ... ومن تهديد الأرض بالتدمير .

وجدير بالشباب اليوم ان يُلقي هذه الأسئلة المدهشة :

« الدراسة ؟ دراسة أيّ شيء ؟ من أجل أي شيء ؟ لجمع المال ؟ أو لإفادة أي شيء آخر ؟ أو للاقتداء بأيّ انسان ؟ »

وفي هذا المعنى ، يقول القرآن الكريم :

« ومن لا يجب داعي الله فليس بمعجز في الأرض ، وليس له من دونه أولياء أولئك في ضلال مبين . » (١)

وفي هذا الإطار ، يقدّر الاسلام مساهمة الإنسان المؤمن في تنظيم الحضارة العالمية ؛ وفي هذا الإطار كذلك ينبغي للإنسان المؤمن أن يدرس كل ما يتعرض له من قضية ... وكان الإنسان المؤمن في كل ذلك أمام هذه الصورة ، وأمام هذه الأسوة ، أو أمام هذه الحياة الكبرى التي هي التطبيق العملي لتعليم

---

١ – ٤٦ / ٣٢ .

القرآن الكريم ؛ والتي يقول الغيب لصاحبها :

وإنك لعلى خلق عظيم (١)

يقول الشاعر الفرنسي لا مارتين : في كتابه (تاريخ تركيا)

أبداً ، لم يفرض إنسان على نفسه – اختيارياً أو إجبارياً – هدفاً أشمل بالملكوتية ... لأن هذا الهدف فوق الطاقة البشرية : قطع علاقات الخرافات الحائلة بين الخليقة والخالق ، إحضار الله للانسان وهداية الانسان إلى الله ، تجديد الرأي المنطقي المقدس إرضاءً للألوهيّة وذلك بين أباطيل الآلهة المتشخّصين والمتطلّعين إلى الوثنية !

أبداً ... ما حقق إنسان في مدة قصيرة ، ثورة كبيرة مثلها في العالم ... حيث إنها ، الدعوة الاسلامية ، بأقلّ من قرنين ، بعدما اتّعظت وتسلّحت سيطرتْ على المناطق العربية ، واخضعت ، لوحدانية الله ، كلا من الفرس ، وخراسان والمحيطات ، والهند الغربي ، وسوريا ، ومصر ، والحبشة ، والقارة المعروفة بافريقيا السابعة ، وجزائر البحر المتسوسط ، واسبانيا ، وشيئاً من أراضي الافرنج .

وإذا كانت عظمة الهدف ، وحقارة الوسائل ، وسعة النتيجة هي المعيار الوحيد لتقدير مهارة الانسان ، فمن يتجرأ منكم – وعن طريق الإنسانية – على مقارنة أي عظيم من عظماء التاريخ بمحمد ؟

إن اكابر العاملين ما حرّكوا إلاّ عساكر ، وقوانين ، ودُولاً ... وما اسّسُوا ، عندما أرادوا تأسيس شيء ، إلاّ قوات مادية قد اضمحلتْ قبل وصولهم إلى الغاية ...

ولكن محمداً حرّك عساكر ، وأحكاماً ، ودولاً ، وشعوباً ، وممالك ، وملايين من الناس في أطراف العالم المسكون ؛ بل حرك – مع ذلك – آراء ،

---

١ – ٦٨/ ٤ .

وعقائد ، وأرواحاً ... وأسّس ، على كتاب واحد – ثبت أنّ كل حرف منه يقابل قانوناً مستقلاً أسس على هذا الكتاب الجنسية الروحية التي تحيط بالشعوب في جميع اللغات وفي جميع الأنواع ... بل طبع – بشكل غير متغير ولهذه الجنسية الاسلامية – كراهة الآلهة الخونة ، وحبّ الإله العلي القدير

حكيمٌ ، خطيبٌ ، نبيٌ ، حاكمٌ ، محاربٌ ، فاتح الآراء ، مجدّد لقواعد عقلية ، رجلُ ديانةٍ بلا تماثيل ، مؤسّسُ عشرين دولة أرضيّة ، ودولية روحيّة سماوية ... هذا هو محمد !

ففي أيّ مرقى من المراقي التي تُقَدَّرُ فيها العظمة الإنسانية ، من هو أعظم ؟

* * *

انها مساهمة تتطلب من الإنسان المؤمن أن يعترف بهذه الرسالة الشاملة التي حملت صاحب هذه الحياة على أن يقول في بادىء الأمر :

بعثت لأتمّم مكارم الأخلاق

أو بعثت لأساهم في تنظيم الحضارة التي نطقت بها التوراة لصالح اليهودية ، ونطق بها الإنجيل لصالح النصرانية ، والتي ينطق بها القرآن الكريم اليوم لصالح البشرية كلها تتميماً لما سبق ...

ورحم الله شوقي حيث يقول ، إشارة إلى هذه الخطة الواسعة التي تعم الدنيا بالعمل :

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت ... وإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

يعني الحضارات – وإنما الحضارات هي الأخلاق ... لا المدافع ، ولا الدبابات ، ولا الدولارات ... وإن ذهبت الأخلاق ذهبت الحضارات معها بلا شك ؛ يقول القرآن الكريم في ذلك :

وضرب الله مثلا قريةً كانت ، آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل

مكان، فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون(١) ويقول :

وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة وأنشأنا بعدها قوماً آخرين (٢).

وإلا فما ثم إلاّ مبادىء تضل في مجاهل العادات والتقاليد ...

يقول القرآن الكريم في ذلك :

مثل الذين حُمِّلوا التوراة ثم لم يحملوها، كمثل الحمار يحمل أسفاراً (٣)

فمساهمة الاسلام إذاً في تنظيم هذه الحضارة ، إنما هي معنى من تكوين حضارة مثالية في الأرض وباسم الغيب ، لتكون الأرض كمرآة تنعكس فيها صورة من صور الغيب ، وليكون الانسان فيها خليفة للمهيمن على الأرض ... ثم لا رفث ولا فسوق ولا جدال في هذه الحضارة ؛ بل لا لغو فيها ولا تأثيم . وذلك ليبقى المهيمن إلهاً في الملكوت بكل ما لديه من الأخلاق المقدسة ، ويبقى الإنسان في الملك وكأنه يمثل هذه الأخلاق ولا يمثلها إلا بمستوى الإنسانيات الخيّرة التي تبني هذه الحضارة العالمية ولا تبنيها إلاّ للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً – وإلا لهؤلاء الذين شأنهم العمل ، وشأنهم التكوين ، وشأنهم التعمير ، وشأنهم إحاطة الحضارة بالحياة العلمية والعقلية والأدبية التي من أجلها يقول الغيب ، مخاطباً البشر :

يأيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم (٤)

وذلك قبل أن تذهب الشكوك والرذائل بالقلوب ...

ويقول الغيب في ذلك :

---

١ – ١٦ / ١١٢ . ٢ – ١١/٢١

٣ – ٦٢ / ٥ . ٤ – ٨ / ٢٤ .

واعلموا أنّ الله يحول بين المرء وقلبه (١)

ويقول :

ومنهم من يستمعون إليك أفانت تسمع الصمّ ولو كانوا لا يعقلون . ومنهم من ينظر إليك أفانت تهدي العمي ولو كانوا لا يبصرون . (٢)

ويقول :

وما يستوي الأعمى والبصير ، ولا الظلمات ولا النور ، ولا الظل ولا الحرور ، وما يستوي الأحياء ولا الأموات (٣) .

وهذا ليكون الفرد فيها نائباً عن الجماعة ، والجماعة نائبة عن الفرد ، وليبقى الناس فيها سواسية أمام العزة والشرف ... وإلاّ ، فما هناك إلاّ أولئك الذين حبسوا أنفسهم على الذل والهوان حتى جاءهم الموت وهم عن تلك الحالة راضون — يقول الغيب في ذلك :

إن الذين توفّاهم الملائكة ظالمي أنفسهم ، فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيراً (٤)

وهذا بخلاف ما إذا كان الذل والهوان مرادفين للقناعة والأنفة ؛ حيث إن توفير الغنى المادي ليس من عزة الروح في شيء :

يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف (٥)

ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً (٦)

« والحاصل ان سقراط ، عندما كان يمرُّ بسوق أثينا كان يرى كثرة البضائع والحاجات التي تُعرض على الناس ، فيقول بل يصرخ :

(كل هذه الأشياء ليست لي رغبة فيها ..)

وحيث أن كبراء الناس الذين يسميهم الإسلام باسم الأولياء لا يجدون

---

١ — ٨ / ٢٤ . ٢ — ١٠ / ٤٣ . ٣ — ٣٥ / ١٩ . ٤٠ / ٥٨

٤ — ٤ / ٩٦ . ٥ — ٢ / ٢٧٣ . ٦ — ٧٦ / ٨ .

السعادة في الغنى المادي فحسب ، ولكن في سكينة النفس ، ونباهة الشأن ، وحسن الذكرى ، وقوة التمكين في الأرض – يقول القرآن الكريم في ذلك :

ألا إنّ أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، الذين آمنوا وكانوا يتقون ، لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة لا تبديل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم (١)

وجاء الحديث في حق هؤلاء الكبراء يقول :

من آذى لي ولياً فقد آذنته بحرب

ويقول محمد (صلعم) في ذلك ... إشارة إلى تلك الثروة المعنوية التي لم يزل يبتهج بها كبراء المؤمنين :

لو سلك بن الخطاب فجّاً لسلك الشيطان فجّاً آخر .

نعم ! إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ... لما فيهم من القوة المعنوية : من الطاقة العلمية والجسمية التي لا تنتج عن الغنى المادي ، ولكن عن سرّ المعرفة ، وسر الاتصال بالغيب ... ثم لا يمنعهم ذلك من الكسب ، ولا من إغناء النفس والغير بما عند الغيب من طيبات الرزق .

وهذا هو القرآن الكريم يقول :

ليس عليكم جناح ان تبتغوا فضلاً من ربكم

ويقول :

هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكر أم أكفر

أوليس سيدنا محمد هو القائل ، ملاحظاً هذه القوة العلمية والجسمية ، ومقدراً هذه الفضيلة الكبرى التي هي إغناء النفس والغير بطيبات من الرزق :

إذا قامت الساعة على أحدكم وفي يده فسيلة فليغرسها !

---

١ – ١٠ / ٦٤

ويفهم الإنسان من كلمة « إغناء النفس والغير » ما هو أوسع وأجود من كل ذلك ... فيشمل الحيوان والنبات وكلّ شيء .

وهذا محمد (صلعم) يقول أيضاً في هذا المعنى العظيم للإغناء :

دخلت النار امرأة في هرّة امسكتها فلا هي أطعمتها ولا تركتها تأكل من خشاش الأرض .

ويقول :

اتقوا الله في كل ذي كبد حرى .

ولم يزل يحذر من قطع الأشجار التي ينتفع بها الناس .

وإذا بلغ العلم والخلق بالإنسان المؤمن هذا الحد ، فمن البديهي أن تحيا الحضارات كلها بعيدة عن المباذل ... بل ومن الحق أن تتخلص حياة الإنسان في الأرض من كل ما يبدو وكأنه رذيلة معقولة ... فتستمد الحياة حينئذ من ضياء الشموس الجوهرية أكثر مما تستمد من ضياء الشموس الحسيّة ؛ ولا يرى الانسان سير العصر ولا تتابع الحوادث إلاّ وراء مقتضيات العلم والخلق.. ويقول مع القائل :

لا أرى الدنيـــا على نور الضحى بل أرى الدنيا على نور اليقين

* *

ووراء عالمية هذه الرسالة تضمحّل كل أسباب التفرقة وتضمحل معها أسباب العنجهية والغطرسة ؛ بل ووراء إيجابية هذه الحياة تتنكر للانسان كل هذه العادات التي تبطل الصدقات بالمن والأذى ، وتفرق البشر إلى عدة طبقات . وتجعل المشاكل احوج إلى خيال لحلها منها إلى حل مناسب بسيط

فتنتفي بذلك الأخوة والموآخاة الحقيقية ، وينتفي معها الأمن واليقين ، ويسود الشك والحذر . وترجع الحضارات إلى آفاتها القديمة التي جعلت أفراداً من أهل الكتاب يدعون أنهم أبناء الله وأحباؤه ... وأنه لن يدخل الجنة إلاّ من كان هوداً أو نصارى ...

يقول السيد الأحبابي في هذا المعنى الحكيم :

« والشخصية الايجابية تمتاز باطلاعها الدائم على اشياء الحياة – اعتباراً لحقائق المستقبل ؛ ثم تستهدف المتوسط في الأمور فلا تنحاز إلى أية أكثرية من الأجناس أو الفكريات ، ولا إلى أية معارضة من المعارضات ، ولا إلى أي خلاف من الخلافات ... لتتمكّن بذلك من الوصول إلى الوحدة الجنسية لجميع أبناء البشر . »

والا ، فكما يجيب العلم والخلق أمام كارثة الغطرسة والعنجهية : تلك أمانيهم

قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين (١)

ثم ينتفي مع ذلك مبدأ الحوار والشورى الذي يعيّنه القرآن الكريم باسم الكلمة الطيبة :

مثل كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها (٢)

وإذا حُيِّيتم بتحيةٍ فحيّوا بأحسن منها أو ردُّوها (٣)

وحسماً لأسباب الحوار العقيم الذي ينتج عن الفوضوية :

لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم (٤)

فتبدو الآية وكأنها تنكر على الناس كل ما يخالف التوازن ، كالمحاربة بالقلم ، والمظاهرات ، والإضرابات ، وسياسة الإرهاب ، وما يجري مجرى ذلك من سوء التفاهم بينهم ؛ ما لم يكن هناك ظلم من جانب السلطات أو من جانب المواطنين – فعلى السلطات إذاً وعلى المواطنين دراسة الأسباب التي تؤدي إلى الظلم وعرضها على الرأي العام ... وإلا ، فالظلم بالظلم ظلمات – ويختار القرآن في ذلك مبدأ الشورى ، بل يقرر أن أمر السلطات والمواطنين

---

١ – ٢ / ١١١ . ٢١ / ٢٤ . ٢٧ / ٦٤ . ٢ – ١٤ / ٢٤ .

٣ – ٤ / ٨٥ . ٤ – ٤ / ١٤٧ .

حينئذ شورى بينهم – وذلك قبل أن تتحول الصغائر إلى كبائر وقبل أن تقوم البوادر مقام البصائر .

وإلى هذا تشير بعض كلمات الدبلوماسية الأمريكية بلسان الرئيس جونسون:

« الأنواع السيئة – من العمل – نتائج لسياسة سيئة » وكذلك :

« الطريق الذي يقود إلى الإصلاح يمرُّ دائماً بنادي الشورى ! »

وتعترف هذه الدبلوماسية الأمريكية بأن فلسفة السياسة الخيّرة تأخذ قسطها من الاستقرار والتوازن .

على أن القرآن الكريم يشير إلى ما يختبىء في أعماق النفوس من الشر فيقول :

وأحضرت الأنفس الشُّحّ (١)

ليأخذ المواطنون كل اسباب العدة في تطبيق مبدأ الشورى ؛ وليس من السهل اليسير أن يفهم الناس ما في هذا المبدأ من الخدمة للسلام ... وأعسر من ذلك أن يتمكنوا من تطبيقه وفق ما يقتضيه صالح البشرية – يقول القرآن الكريم تطميناً لهذه النفوس :

وان تحسنوا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً (٢)

* * *

وقد انتشر الاسلام ، وسجّل التاريخ البشري ...

لكن لا يعني تأخر المسلمين في هذه القرون المظلمة تأخر الإسلام ؛ لأن الإسلام لم يزل يرى في المؤمن إنساناً عالمياً ولو بلغ به الاستعمار إلى حد التقاعد ؛ ولو سارت به أسباب الاستغلال إلى ما هو عليه اليوم من الجمود .

لقد ترك الإسلام هذا الميراث العلمي والخلقي لسائر الحضارات ... لتكون الحضارات كلها كأجزاء تتآلف وتتجدّد تحت إشراف هذه الرسالة القيمة...

---

١ – ٤ / ١٢٧ . ٢ – ٣ / ١٢٠ .

ولتكون الأمة عنده عبارة عن كل سكان الأرض ؛ وليكون الدين عنده لا يعرف العصبية ولا يعرف الجنسية ...

ففي وحدانية الله ، يرى الإسلام وحدة الإنسانية ؛ وفي كمال الصفات الغيبية ، يرى انسجام الأخلاق البشرية ؛ وفي أزلية السلطة السماوية ، يرى تأميناً للصالح البشري ... ويرى فوق ذلك أن التعايش السلمي الذي تقدسه القرات باللسان ولا تؤكده بالفعل ، ليس إلا صورة حقيقية لهذه الوحدة التي يقول من أجلها القرآن الكريم :

ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم (١)

ويقول من أجلها كذلك :

« وتعاونوا على البرّ والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان » (٢)

وكيف يتأخر الإسلام ، وهذه المبادىء الخيّرة تبقى عنده بقاء الأمد — إلا أن التطور التاريخي يقوى في بعض الأحيان فيحول بين الناس وهذه المبادىء ويقوى على اثارة العوامل لأمة ضدّ أمّةٍ ليتحقق ما قالة القرآن الكريم في هذه الآية :

وتلك الأيام نداولها بين الناس

وليعرف الفرد وتعرف الأمة أن سير العالم ، وكل سير العالم ، ما هو إلاّ إرادة الحكيم العليم ؛ وأن هذا السير وراء هذه الارادة ، ربما لا يحقق إلاّ جانباً من التطور البشري يقول القرآن الكريم في ذلك ، مخاطباً الإنسان الاول :

« فلا يغرنك تقلب الذين كفروا في البلاد ، متاع قليل ثم مأواهم جهنم »

هكذا التاريخ يطبق على الأمة من شدائد البلايا والمحن ما شاءت الارادة أن يطبّقه على الأمة — ولو عن سبيل انهيار الأخلاق ؛ ولو عن سبيل تدهور

---

١ — ٨ / ٤٧ . ٢ — ٥ / ٣ .

الطاقات ... ثم لا خير إلاّ إذا عقلت الحضارات الكبرى ما عليها من الاعتراف بجميل العلم والخلق ؛ وإلا إذا اختارت التعارف على التحارب ... فتكون كما قال السيد ريموند شارل في كتابه (تطور الإسلام) تعليقاً على مـــا ذكره السيد لويس غارديه في هذا الشأن :

« وهنا يبدو أن مسؤولية الغرب في موقف مستقرّ ... وعلى الغرب أن يعيد هذه القيم الروحية والدينية إلى دورها العلمي ؛ هذه القيم التي من دونها تكون ثقافة الغرب ، وتكون فتوحاته الملموسة ، في العالم ، كشيء لا معـــنى له ... »

ولعل الحضارات تتناول رشدها بالبناء أكثر مما تتناوله بالهدم ... ولعلها ترى في استقلال البلاد المسعبدة ، وفي تحرر المستضعفين درساً من أحكـــم دروس الحياة في الأرض ... ولعلها – بعد كل ذلك – تتلقى التاريخ بالترحيب ، وتتلقى الحوادث العظمى بالرضى والإيجابية ... وهذا ما لم تسُدْ به عندها فلسفة التساقط التي جعلت أغنياء العالم يتكالبون على الفقراء ، بـــل جعلتهم وكأنهم يضِنّون حتى بفضل التآخي والتقارب ... فينكرون على المستضعفين حب الخير ، وينكرون عليهم عقلية الكسب الحلال ... بل يدّعون ، فوق ذلك أن الفوز والنجاح ملازمان أغنياء الحضارات الفنية المعاصرة ، ولاغنيائها فحسب – ثم يزعمون – التفاتاً إلى ما كان عليه بغاة السلف – أنهم أبناء الله وأحباؤه ... قل فلِمَ يعذبكم بالحرب ، ويعذبكم بالحمر ، ويعذبكم بالشح المطاع ، ويعذبكم باللهو والطرب ، ويعذبكم بالظلم واللؤم ، ويعذبكـــم بالتطلع الى الاستغلال ؛ بل أنتم بشر ولعل الحضارات تستدرك هذا المجد الذي تبقى الأرض من دونه مذبحة ، والذي إن لم يستدرك فسوف يثور البقر والخيل والذئبان ، يوماً من الايام ، على أرباب المصانع ، وعلى سكان العواصم وعلى رجال ناطحات السحاب لارجاع المجد البشري . وإلا ، فما هناك بشرية وما هناك حضارة ! والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته !

أهداف الرسالة الإسلامية

إن المسلمين في جميع بقاع الأرض ، أخذوا يتساءلون اليوم وهم لا يتساءلون إلاّ عن هذا النبأ العظيم الذي لا يقبل الحياة في الأرض إلاّ مملوءةً بالمظالم ، والذي من أجله تصبح الحياة في الأرض رهينة بين أيدي الأقوياء ... بل الذي لا يشغلُهُ إلاّ إحاطة المشاكل الإنسانية بالأسلحة : بالدَّبّابات والطائرات ، بل بالصواريخ والقوات الذرّية .. ولا يشغَلُهُ إلا تحقيقُ السلام بالاتفاقيات المتخوّفة الفارغة التي تفتح له سبيل الوصول إلى أطراف المناطق ، وإلى أوساط البلاد ... كلُّ هذا جعل المسلمين يردِدُون هذه الكلمة المرعبة التي تقول :

وإنا لا ندري أشرٌّ أريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربُّهم رشداً (١)

بل كل هذا جعل المسلمين يستفهمون أمام هذه الحالة عن موقف تلك الرسالة الدينية والإنسانية التي يدعو اليها الإسلام ويدعو إليها محمد (صلى الله عليه وسلم) ...

وهل من واجب هذه الرسالة أن تخطو خطوة هؤلاء الأقوياء لتخضع لها الأرض ، وليخضع لها اللهوُ والطربُ والقمار ... أو من واجب هذه الرسالة أن تأخذ الطريق الوسط وتقود فيها الأمة الوسطى ليحيا الإنسان وهو لا يضحي بإنسانية في سبيل تركيب آلات الراحة : بل ليحيا الإنسان وهو لا

---

١ – ٧٢ / ١٠ .

يُجْهِدُ روحه الكريمة الطيِّبة في سبيل تدنيس الأرض بالدم وفي سبيل توسيخ المناطق بالاستغلال أو بما يصحب الاستغلال من الربا – يقول القرآن الكريم في ذلك :

يمحق اللهُ الرِّبَا ويُرْبي الصَّدقات (١)

ويقول :

الذينَ يأكُلُونَ الرِّبَا لا يَقُومُونَ إلاَّ كمَا يقوم الذي يتخبّطُهُ الشيطانُ من المس (٢)

ويقول :

أيَوَدُّ أحدُكم أن تكُونَ لَهُ جَنّةٌ من نخيل وأعنابٍ تجري من تحتها الأنهارُ له فيها من كل الثمرات وأَصَابَهُ الكِبرُ ولَه ذرِّيَةٌ ضعفاء ، فأصابها إعصارٌ فيه نارٌ فَأحْتَرقَتْ . كذلك يبيِّنُ اللهُ لكم الآيات لعلكم تتفكّرُون(٣)

ويقول :

كي لا يكون دولة بين الأغنياء (٤)

إن هذه الرسالة في البلاد الإسلامية تخطو خطوة أولئك الأقوياء وتسارع إلى توفير أسباب الغنى والرفاهية ... لتتوفر مع ذلك الأمراض الحسية والمعنوية .. ولتضيق فيه حياة أحرار الأرض الذين لا طاقة لهم في المساهمة بتأسيس الشركات الصناعية والتجارية ، ولا بناء ناطحات السحاب ولا تنظيم دوائر الترف التي تأوي إليها بغاة الشعوب .

بل إن هذه الرسالة في البلاد الأسلامية تغدو عين التكافؤ الذي يجعل المسلمين لا يزْدهُون إلا بما تزدَهي به أقوياءُ العصر ممّا لا يخرج عن جد الطغيان : من تزيين في الملابس والمساكن ، وتطييب في المآكل والمشارب – وذلك من دون

---

١ – ٢ / ٢٧٦ . ٢ – ٢ / ٢٧٥ . ٣ – ٢/ ٢٦٦ .
٤ – ٥٩/ ٧ .

أن يكون للروح ولا الأخلاق المقدسة فيها نصيب معروف . يقول القرآن الكريم في ذلك :

فلما نسُوا ما ذُكِّروا بِهِ فتحنا عليهم أبوابَ كلِّ شيءٍ حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتةً فإذا هم مبلسون (١) .

ويقول :

وكم من قرية كانت ظالمة وأنشأنا بعدها قوماً آخرين (٢)

ويقول :

إنهم كانوا قبل ذلك مُترفين وكَانُوا يُصرُّون على الحنث الظعيم(٣) .

ويقول :

فذرهم يخوضُوا ويلعبُوا حتى يُلاَقُوا يومهم الذي يوعدون (٤).

ولكن من واجب هذه الرسالة أن تطبق بإسم الله الواحد القهار مبادىء التربية والإصلاح وذلك لتبقى الحركات والسكنات وليبقى كلُّ شيءٍ كإشارة لهذه الكلمة القاطعة التي تقول :

والله خلقكم وما تعملُون (٥)

والتي تقول :

الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أَحْسَنُ عملاً (٦)

إن هذه الرسالة أسمى من أن تنطق بالغيب دون أن تعترف بالشهادة ولا أن تعترف بالشهادة دون أن تنطق بالغيب .

بل إنها تنطق وتعترف قبل كلّ شيء بالوحدانية وبمعانيها المتعددة التي تتصل بهذا وبذلك وتجعل الحياة مرحلة من مراحل تطور الجنْس إمّا في الغيب

---

١ – ٦ / ٤٤ . ٢ – ٢١ / ١١ ٣ – ٥٦ / ٤٥ – ٤٦ .
٤ – ٤٣ / ٨٣ – ٣٠ / ٤٢ .
٥ – ٣٧ / ٩٦ . ٦ – ١١ / ٧ – ٦٧ / ٢ .

وإمّا منه إلى بطن الأم وإمّا منه إلى المجتمع ، وإمّا منه إلى القبر وإمّا منه إلى الغيب مرة أخرى . يقول القرآن الكريم في ذلك :

وإن تعجب فعجبٌ قولهم : أءذا كنا تراباً أإنا لفي خلقٍ جديد(١)

ويقول :

أينْ ما تكونوا يأتِ بكم اللهُ جميعاً ، إن الله على كل شيءٍ قدير (٢)

ويقول :

إن الله لا يخفى عليه شيءٌ في الأرض ولا في السماء هو الذي يصوّركم في الأرحام كيف يشاء ، لا إله إلاّ هو العزيز الحكيم (٣)

هذا لتكمل نقائص الدنيا بالآخرة ولتكون الآخرة ينبوعاً من ينابيع الخير التي لا يحيا الإنسان حياته الحقيقية في الدنيا إلاّ إذا أرجع إليها ، هذا لتكون الوحدانية هي العلّة الأولى في توجيه سر العوالم العلويات منها والسفليات .

يقول القرآن الكريم في ذلك :

كلٌّ من عند ربّنا وما يذكر إلاّ أولوا الألباب

ويقول :

بديع السموات والأرض وإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون

وكانت الحرية حينئذ حرية الناطق بالغيب والمعترف بالشهادة ؛ بل كانت الحرية في ذلك حرية الإنسان المصلح الذي يبني في الدنيا قلعاتِ الأمن ويُعِد للآخرة كنفات السعادة ؛ والذي يطوي الآفاق لإنقاذ النفس من بلايا الظلم ولإخراج النفسية من غوايات الظلمات فتسلم النفس من الظلم والنفيسة من الظلمات ويعُمّ السلام في الأرض ؛ ويصبح الإنسان في المصانع والمكاتب ! في طوايا السفن والبواخر ؛ في حنايا الطائرات والسيارات ، في أوساط الجامعات في خبايا المؤتمرات ... يصبح الإنسان في كل ذلك مؤمناً بالغيب

---

١ - ١٣ / ٥ . ٢٧ / ٦٧ .   ٢ - ٢ / ١٤٨ .   ٣ - ٣ / ٦ .

ومؤدّياً رسالة هذا الغيب أمام الأمة -- يقول القرآن الكريم في ذلك :

من يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيب منها . ومن يشفع شفاعة سيئةً يكن له كفل منها وكان الله على كل شيءٍ مقيتاً (١)

ويقول :

ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يُكلمون نفيراً .

ويقول :

من كان يريد ثواب الدنيا فعند الله ثواب الدنيا والآخرة .

وإلاّ فالانسان نوعٌ من الخسارة ولو ذلّل صعاب الأرض ولو استعبد الحديد ولو استغل مناطق العالم وذلك كما قال التجاني الحسني الفاطمي في قطعة من الشعر :

تريد المجد ثم تنام ليلاً ... لقد أطمعت نفسك بالمُحال
لقد رمت الحصاد بغير حرث ... يغوص البحر من طَلَب اللآلي
فدع عنك التعلّل بالأماني ... وجُدَّ تنل مقاماتِ الرجال
فليس ينالها سعي الهُوَيْنَا ... ولا بالهُون ترقى للجِبال
ألا خلِّ التكاسل والتواني ... ونفسك جرَّ عن مُرّ النكال
وخذ في الكَدِّ واحتز من وشمر ... بعزم إنَّ سوم الحظ غالِ
فمن ركَنَتْ سجيّتُه لعجزٍ ... تقاعس عن محاولة المعالي
فإن وصدَ المفاخرَ لم ينلْها ... ومن طلب العُلاَ سَهَرَ الليالي

بهذا يكون الإنسان جديراً بالإنسانية وتكون الأرض جديرة بحياة الانسان وإلاّ فما خيّب الإنسان في رسالتهِ القيّمة وما أخسّها .

والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته !

---

١ - ٤ / ٨٤ .

اله واحد، شعب واحد، عالم واحد

يسرنا ، عندما نجتمع بكم أيها السادة !

أن نتكلم ونتكلم ...

وبم نتكلم اليوم ؟

نتكلم بمكامن هذا الإيمان الذي يدفع الإنسان ، وخصوصاً الإنسان المسلم، وراء التطلع إلى حقائق الموجودات التي لا مطمع في التطلّع إليها إلاّ عن طريق الإيمان .

ولكن ما فائدة كُلِّ ذلك ما دام النّاسُ هُنا في السنغال ، همّهم الاستغناء بالعمل وحده . وإذا كان العمل مُرَادفاً لبعض الحركات التعبُّدية التي يرثها بعضهم عن بعض ولو على سبيل التقليد ، والتقليد الأعمى ؟؟ هذا السيد الشيخ التيجاني الحسني الفاطمي يقول في كلمة جاء فيها :

إن التصديق خير من التقليد ؛ وإن التصديق لا يكون إلاّ بالتوسُّع والتعمق الدائم المستمرّ بل إنّ الحياة كلها تساؤل ؛ وتشجّع وتشكُّك ؛ واهتمام بكل ما يستغرق الأيام والحوادث ويستغرق كلّ شيءٍ ... حتى لا يردّد الحكيمُ هذا القول المزعج : أخاف هذا الوحش الموجود في الإنسان اخاف ذئباً موجوداً في الإنسان :

وهذا هو القرآن الكريم يقول :

أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أويعقلون إن هم إلاّ كالأنعام بل هم أضلُّ سبيلاً (١)

فنعم أيها السادة !

وإذا شاء الغيب أن نتكلم اليوم فإننا نتكلّم بذلك ونجعله متوقفاً على هذه الكلمات الثلاث :

اله واحد ، وشعب واحد ، وعالم واحد !

وحيث أن فكرة الإسلام لا تترتب إلاّ على هذه الكلمات ... لتكون الحياة والحياة كلّها مقسمة بين الوحدانية الإلهية والوحدة الشعبية والوحدة العالمية من النور ما نستدل به على مفاهيم

فالإله واحد ، والشعب واحد ، والعالم واحد ! ليتحقق عن ذلك تلك الوحدانية الأقنوميّة التي هي الأصل في كل شيء ...

ولكن كيف يدعو الإسلامُ إلى هذه الفكرة .. إذا كان أمامه طائفة من العلماء ومن الإيجابيين الذين يعتمدون على العِلم لنفي وجود الله ؟

إنّ الإسلام لا يدعو الرجال بالأسماء ولكنه يدعو الضمائر بالفطرات ، ويدعو العقول بأسباب الحياة — فيقول :

ولئن سألت الضمائر باذن من الفطرات ، ولئن سألت العقول باذن من أسباب الحياة ، ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ؟ ليقولنّ : خلقهن العزيز العليم !

فهذه هي الأرض بجبالها وأشجارها وبحارها وأنهارها ، وهذه هي الشمس بأشعتها وذراتها وهذا هو القمر بضيائه وآثاره ؛ وهذه ملايين من النجوم والكواكب بخصائصها وطبائعها ونواميسها ، وهذا عدد غير محدود من حيوانات وحشرات تملأ الأرض كلها فمنهم من يمشي على بطنه ومنهم من يمشي على

---

١ — ٢٥/٤٤

رجلين ومنهم من يمشي على أربع ... وكل هذا يقف أمام الفكرة والعقلية الإنسانية فيقول :

هل من خالق ؟

وهل من خالق غير الله يرزقكم ؟

إن الإنسان ينطق بإسم هذه الكلمات الثلاث وهو لا ينطق بكل ذلك إلاّ للاعتراف بجميل الإيجاد والتكوين واتبقى الفطرة وليبقى معها العقل وسيلتين من أقوى وسائل الإدراك ...

إنها صورة امرأة جميلة أطرت أجمل تأطير وعلقت بالحائط — فتقول :

هل من مصور ؟

أو إنها روح الإدراك التي تجعل الإنسان في غاية ما هو فيه من الشعور بمعاني هذه النغمات التي يتلقّاها عن أوتار الكمنجة ، إذا ضرب عليها الفنان بأطراف البنان ...

أو إنه الإنسان في تركيبه العجيب الذي جمع بين الاختلال والنظام وكان وكأنه اختلال منظم يُعبر عن أرقى درجات الفنّ التكويني ، والذي يقول من أجله القرآن الكريم :

يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم الذي خلقك فسوّاك فعدلك ؟ في أي صورة ما شاء ركبك !!(١)

ويقول :

ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفةً في قرار مكين . ثم خلقنا النطفة علقةً فخلقنا العلقة مضغةً فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً ثم أنشاناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين — ثم انكم بعد ذلك لميتون

---

١ ٨/١٢ .

ثم إنكم يوم القيامة تبعثون (١) !

ولا شك أن الحكماء المتدينين منهم وغير المتدينين الشرقيين منهم والغربيين اتفقوا على شيءٍ واحد : هو أنّ الإنسان مجموعة من أجهزة محددة يتصل بعضها ببعض ، ويستقل بعضها عن بعض .. وأنّ الحدود التي بها يعبّر عن الإدراكات هي وسائل مستعارة وعلم آدم الأسماء كلّها (٢)... وهي وسائل إذاً مستعارة واتفاقيات مستعادة يفهم عنها الإنسان وخصوصاً الإنسان المسلم بل يفهم عنها معنى العبودية ، وأنّ حياته بإرادة غيبية لا يحيا بها إلاّ حكمة غيبية ...

ثم لا مجال وراء هذا الحق الذي نطق به إبراهيم الخليل :

« وسع ربي كل شيءٍ علماً » فيجيب الغيب : نعم ! أيها الخليل .. ولدينا كتابٌ ينطق بالحقّ ، كتاب الإدراكات ...

ثم لا مجال أيضاً وراء الإيمان بهذا الحق – وإلاّ فلا أمن ولا حياة ولا شيء !

ولكن هناك إيمان وإيمان :

الإيمان الحقيقي الذي يأتي الإنسان عن مصدر الخير ، والايمان التقليدي الذي لم يكن إلا تغربة من تغارب الشيطان الرجيم ... هذا الايمان الـذي يمشي ويمشي وراء الشرك والردة ويمشي ويمشي وراء المزاعم التقليدية ، من علم يحيّر ويضلّ ، ونعمة تطغي وتميت ، وسلطة لا تؤدي إلاّ إلى الذلّ والهلاك وعقيدة كلها هوان وسبّة :

ولا تطغوا فيه فيحل عليكم غضبي ومن يحلل عليه غضبي فقد هوى .

انظر إلى الحضارة الغربية وما عليه البلاد الاخرى إنها لشركة مؤسسة بين هؤلاء الثلاثة ... ولكل واحد منهم مقام مخصوص :

---

١ – ١٥/٢٣ ٢ – ٣١/٢

فالإله لا يمكن أن يكون غير الإله وغير الإله الواحد .

ولو كان معه من إله إذاً لذهب كلّ إلهٍ بما خلق ولعلا بعضهم على بعض !

لو كانت فيهما ، آلهة إلاّ الله لفسدتا ! (١)وما من إله إلاّ إله واحد !

والشعب لا يقوى على رفض العبودية والانقياد ... وإلا فلا شعب !

وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة ، وأنشأنا بعدها قوماً آخرين (٢)

وسيبقى العالم إبداعاً فنيّاً يُزودُ مَا يزوّد به من مقدار الحركة بلا زيادة ولا نُقصان ... فيقال له سر ببركة الله . الذي خلق سبع سماوات طباقاً . ما ترى في خلق الرحمان من تفاوت . فأرجع البصر هل ترى من فطور ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خائساً وهو حسير (٣) .

وإلاّ فلا عالم

إنها لشركة مؤسسة بين قادر وعاجز بين قادر يعهد كل شيء ويخلق كل شيءٍ ، وعاجز لا يعهد إلاّ قدر ما في وعاءِ القلب ... بين قادر غير مسؤول وعـاجز مسؤول ... بين قـادر يقول : تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير (٤)

ويقول :

قل لمن الأرض ومن فيها — سيقولون لله . قل من رب السموات السبع وربُّ العرش العظيم ؟ — سيقولون الله .

قل من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه سيقولون الله

ويقول :

وخلق كل شيءٍ فقدّره تقديراً (٥)

---

١ — ٢٢/٢١ ٢ — ١١/٢١ ، ٢٨/٤٤ .
٣ — ٤/٦٧ ٤ — ١/٦٧
٥ — ٢/٢٥ .

ويقول :

ولا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً . ولا يملكون موتاً ولا حياة ولا نشوراً (١)

ويقول :

وهو الذي جعل لكم الليل لباساً والنوم سباتاً وجعل النهار نشوراً وهــو الذي مرج البحرين هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج وجعل بينهما برزخاً وحجراً محجوراً . وهو الذي خلق من الماء بشراً فجعله نسباً وصهراً وكان ربك قديراً (٢)... بين هذا القادر وعاجز يقول :

لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين (٣)

ولا شك أن الهداية لا تكون إلا بالعلم والعلم لا يكون إلاّ عن سبيل الوحي يقول البسطامي في ذلك :

أخذنا علمنا عن الحيّ الذي لا يموت !

ويقول القرآن الكريم فوق ذلك مخاطباً أمير الأساتذة والمعلمين :

وإنك لَتُلَقّى القرآن من لدن حكيم عليم (٤)...

وهذا السيد مارتين ينتظم في هذا السلك ويصرخ أمام الإيحائيين :

Il y a une inspiration d'ordre surnaturel à laquelle les dons du St.- Esprit nous rendent dociles et qui présuppose la charité; elle élève les âmes saintes au mode surhumain d'agir qui fait la vie mystique.

Mais dans l'ordre naturel aussi, il y a une inspiration spéciale qui, elle aussi, est au-dessus de la délibération de la raison et qui procède, comme le notait Aristote, de Dieu présent en nous ...

---

١ - ٣/٢٥ ٢ - ٥٤/٢٥ ٣ - ٧٧/٦ ٤ - ٦/٢٧ .

إنها لشركة مؤسسة لا يحكم فيها ، ولا يديرها إلاّ صوت واحد ... فكان حظّ بعض منهم الحكم المطلق والإرادة المطلقة وحظُّ بعض آخر الرضى بالحكم والقبول للإرادة – لئلا يخسر المجدود بالمطرود ؛ ولئلا يتحول العصيان إلى المشي وراء العدوان ... وكان كما قال الخليل :

فانهم عدو لي إلا رب العالمين . الذي خلقني فهو يهدين ، والذي هو يطعمني ويسقين . وإذا مرضت فهو يشفين ، والذي يميتني ثم يحيين (١) .

وكما قال الكليم :

قال كلا ! إن معي ربّي سيهدين (٢)

إنها لشركة مؤسسة ينطوي فيها جميعاً معنى الكمال والنقصان ، وينطوي فيها معنى الإطلاق والتحديد ؛ وينطوي فيها معنى الخير والشر ؛ وينطوي فيها معنى الصداقة والعداوة – فيبقى كلّ هذه المعاني تحت أمر الخصائص والطبائع أو تحت أمر أعضاء الشركة الذين يقول بعضهم في حقّ بعض :

إن الذين هم من خشية ربّهم مشفقون . والذين هم بآيات ربّهم يؤمنون. والذين هم بربّهم لا يشركون . والذين يؤتون ما آتَوْا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربّهم راجعون . أولئك يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون (٣).

والذين يقول بعضهم في حقّ أسداء البعض :

ثم أرسلنا رسلنا تترا كلما جاء أمةً رسولها كذبوه فاتبعنا بعضهم بعضاً وجعلناهم أحاديث فبعداً لقوم لا يؤمنون (٤)

فإن الإيمان أو الاعتراف بهذا الوجود فهو أصل كلّ شرف للعقل البشري وهو السبب في كون الإنسان عضواً مختاراً للشركة يترقى ويترقّى فيها

---

١ – ٨٠/٢٦ ٢ – ٦٢/٢٦

٣ – ٥٨/٢٣–٥٩–٦٠–٦١ ٤ – ٤٤/٢٣

بإغناء من رأس مال المؤسس ... وذلك من دون أن يكون هناك أي مقابل ...

وذلك أيضاً ليفهم الإنسان معنى تلك الوحدة الوجودية التي من أجلها يقول السيد محمود الوراق :

من شرف الدنيا ومن فضلها أن بها تستدرك الآخره

والتي من أجلها يقول الإمام الغزالي : الموجودات كلّها أخوات بعضهن لبعض – نعم ! إنما الموجودات أخوات فأصلحوا بين هؤلاء الاخران أيها السادة ! حتى بين الجنة والنار .

وفي هذا لمعنى تقول السيدة العدوية :

كلهم يعبدوك من خوف نار ويرون النجاة حظاً جزيلا
أو بأن يسكنوا الجنان فيحظوا بقصور ويشربوا سلسبيلا
ليس لي بالجنان والنار حظ أنا لا أبتغي بحبي بديلا

وهذا السيد المسيح يقول في ذلك وبأقوى عبارة : « وملكوت الله فيكم » !

فالسيد المسيح ينقل ظواهر الإيمان إلى بواطنه فيقول : « وملكوت الله فيكم » !

وهذا بعض شعراء المتصوّفة يقول في هذا المنهج :

تأمل سطور الكائنات فإنها من الملأ الأعلى إليك رسائل
لقد خُطّ فيها لو تأملت سطرها ألا كلّ شيءٍ ما خلا الله باطلُ

فإن هذا الإيمان أو هذا الاعتراف تجربة من أنفع تجارب الحياة وعزة دونها كلّ عزة

وأيُّ شيءٍ أولى بالإنسان من هذا الهدف ؟ وأي تجربة أنفع له من هذه التجربة ؟ ولو أدّى في بعض الاحيان إلى سوء السمعةِ وإلى الموت :

وكان كما قال الحلاج عندما حكم عليه بالقتل أثناء تجربته وقدم للجذع :

لبيك يـا عالمـاً سرّي ونجوايـا لبيك لبيك يـا قصدي ومعنايا
أدعوك بل أنت تدعوني إليك فهل ناجيتُ إياك أم ناجيتَ إيايـا
حبي لمولاي أضناني وأسقمـني فكيف أشكو إلى مولاي مولايا
يا ويح روحي من روحي ويا أسفي عليّ مني فإني أصل بلوايـا

بل يقول في هذا المعنى بعض مفكري المسيحية السيد جاك مارتين :

Vous pouvez vous figurer quel plaisir il y a à se trouver à la merci de Dieu seul. ... اتاني هواها الخ

وهذا السيد جان لاكروا يقول في هذا المجال :

« أصبحت الفضيحة اليوم تسود العالم الإنساني ، ومن واجبنا إذاً أن نتجاهل سلطتها ونعمل للقضاء عليها احتفاظاً بشخصيتنا ... والوسيلة الأولى إلى ذلك هي الاعتراف بوجود الله تعالى !

فإن الله تعالى حقيقة كائنة تتصاغر دونها الحقائق كلها – فإن لم يكن الله فكيف يكون العالم ؛ فالاعتراف إذاً بوجوده يُفيد التغلب على عوامل هـذه الفضيحة ...

ويستشهد بما قاله السلف :

ما أسعد الذين يطيعون بلا أي غرض إن لم يكن غرض الإطاعة ... وهذا الفضل لا يعود إلى إرادتهم ولكن إلى ذلك النور الذي يهدي به الله من يشاء »

« وأنا في قتال مستمر مع العفاريت الأربعة الذين تُعرف قوّتهم وحذاقتهم !

أنا الذي تشاهدون مني ما تشاهدون من الضعف والخور ..

وقد شاء الله أن يصبح القِتال من أشد ما يكون – لا سيما والعدوُّ يتجلّى في أكثر من ألف صُورة »

Jean Lacroix, en fidèle cartésien et à partir de la notion existentialiste de l'absurde, ébauche une démonstration de l'existence de Dieu.

L'absurde a élu domicile dans notre univers; la plus impérieuse exigence, à la fois logique et morale de notre personnalité, ne serait-elle pas de refuser cette absurdité ?

Dieu existe parce qu'il le mérite, parce que, sans lui, le monde n'a pas de sens ...

Croire, c'est donc refuser l'absurde.
Et il cite la devise des anciens :
Heureux ceux qui, sans délibérer, sont portés à bien agir.

إن الذين قالوا ربّنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ـ لاخوف عليهم ولا هم يحزنون (١)

Cela ne vient pas de leur volonté, mais d'un principe présent en eux, qui est supérieur à leur intelligence et à leur volonté.

وإلاّ فكما قال الشاعر :

إبليس والدنيا ونفسي والهـوى كيف الخـلاص وكلهم أعدائي

وهذا السيد مرتين أيضاً يعلّق على هذا البيت ويقول :

C'est toujours Maritain qui reprend ce passage pour le compte de l'Eglise catholique :

Je suis entré en combat avec quatre démons des plus puissants et malicieux de l'Enfer, moi, de qui vous connaissez les infirmités. Dieu a permis que les combats ont été si rudes, et les approches si fréquentes, que le moindre champ de bataille était l'exorcisme, car les ennemis se sont déclarés en secret, de nuit et de jour, en mille manières différentes.

---

١ ـ ٤١/٣٠ ، ٦٤/١٣

نعم ! إن هذه التجربة هي عين السعادة للإنسان ، كأنها هي نفس الاطمئنان وهي المعنى العظيم للحرية والسلام

وكان كما يقول الشاعر :

كانت لقلبي أهواء مُفَرَّقـــــة فاستجمعتْ مذ رأتك العينُ أهوائي

وكما يقول في مقام آخر :

ومـــا زلت إياها وإياي لم تـــزل ولا فرق . بل ذاتي لذاتي أحبّتِ

افتراق باتفاق في عالم بلا شكوى في عالم بلا عصيان — وكان كما قال ابن الفارض :

وكل أذى في الحب منكم إذا بدا جعلتُ له شكري مكان شكيتي

أو في عالم لم تكن الشكوى فيه إلاّ نوعاً من الاستغاثة ولم يكن العصيان فيه إلاّ نوعاً من الاعتراف بكمال هذا الوجود ! يقول الكاتب والشاعر الفرنسي الكبير السيد جان كوكتو رفضاً للشكوى عن هذا العالم :

Ce qui nous frappe comme une malchance, comme une aptitude au drame, compose ailleurs un chef-d'œuvre : notre injustice vient d'une courte vue. Que pense la toile sur laquelle Picasso est en train de peindre ? — « Il me tache, il me cache, il me salit ... »

عسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لـــكم

ولا شك أنّ هذه التجربة تنافي الشكوى وتنافي العصيان — ولا تستغني بقشور الآيات ولا بزخارف الحياة

ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض(١) ولو قبلوا هذه التجربة لاطلعناهم على العلوم للتعاقد بالعلويات والسفليات وأسرار الجبروت وأنوار الملك والملكوت !

---

١ — ٩٥/٧

وما أحسن قول الحكيم في ذلك :

حبي به فحياة دونهـا كلـــم ... حبي به فجهاد غير مكتـوب
أين الحروف وإني بينهـا مـلك ... يستنزل الصخرة الصما بتأديب
فلا أبالي فوزي في مقاطعـــة ... أو في مجانسة يومـاً كمحجوب
قلب طهورٌ وروح بعد ساميـــة ... ووصلة بمقام فيه محبـوبي
لا حكم لي في أمور الخلق إن معي ... عن الأمور اهتمامي بالتجاريب

وهذا السيد الحكيم التيجاني الحسني يقول :

مما يمتاز به رجال هذا المقام رفعُ الهمة عن الناس ...

ويقول :

دفعت من أول الأمر إلى الحضرة الرباني ، وأنا إذ ذاك غير مشغول بعوائد الناس .

والسيد المسيح يقول في هذا الشأن : أليست الحياة أفضل من الطعام ؟ أليس الجسد أفضل من اللباس ؟

والسيد ريدولو ستاينار يقول :

Celui qui, par une discipline méthodique, a atteint le degré de clairvoyance nécessaire, distinguera la réalité spirituelle de sa représentation personnelle.

ولا مطمع للأديب التركيبي في ذلك كما أشارت إليه الأبيات السابقة .

والسيد كوكتو يؤيد هذه الفكرة بهذا القول :

La littérature est impossible. Il faut en sortir. Il est inutile d'essayer d'en sortir par de la littérature : seuls l'amour et

---

« فان الذي أدب نفسه بنظام مقبول تذهب به البصيرة إلى التميز بين الحقيقة المعنوية والتمثيل الشخصي » .

la foi nous permettent de sortir de nous-mêmes. Avoir recours au rêve n'est pas quitter la maison.

Et il poursuit avec tristesse :

Je commence à me fatiguer du beau incapable de tenir le coup en face de n'importe quel hasard.

Je devine une époque où l'esprit, abandonnant ses véhicules maladroits, renoncerait à convaincre par l'entremise du chef-d'œuvre.

La beauté deviendrait peu à peu bonté, les chefs-d'œuvre actes du cœur, sainteté le génie !

قد لبسنا هياكـــل النور لمـــا فارقتنـــا الهياكـــل البشريه

ويقول القرآن في هذا المعنى العظيم :

إليه يصعد الكلم الطيِّب «La littérature» والعمل الصالح يرفعه (١)

L'art pour l'art, l'art pour la foule sont également absurdes.

Et la noblesse nous propose l'art et tout pour Dieu.

ولكي لا يدرك هذا المعنى الا المحققون والذين يجهلون فكرة التساقط التي أدّت إلى اهلاك الروح باسم الروح ، وإلى إهانة الايمان باسم الإيمان — هؤلاء المحقّقون الذين لسان حالهم في بيت من الشعر :

خليليّ قطّاع الفيافي إلى العلا كثـــــير وإن الواصلين قليـــل

ويقول :

نأت دار ليلى لا الهوينا تنالهـــــا فشمّر فإن القوم بالجدّ أبرموا

ودع حسن ليلى واشتغـــل بمرامها ولا تلتفت للغير إن كنت تفهم

وتحـــديثها للأجنبي جنايـــــة وكن عارفاً بالوقت والليل مظلم

---

١ — ٣٥/١٠ .

Maritain reprend ce passage aussi bouleversant qu'inquiétant :

Vous savez le secret des réussites périlleuses, vous l'apprendrez à nos amis. Votre programme est bon.

Pourtant, qu'ils ne s'y trompent pas, c'est à une dure partie qu'ils sont conviés, où il y aura des blessés et des morts.

Bien que je désire fort qu'une telle partie s'engage, je n'y pousserai personne. Mais aux «gaillards capables de tout», à Moïse, à Jésus, à Mahomet, à leurs apôtres qui veulent tenter l'aventure, je dis : Vous ne tiendrez que par grâce.

من يهدي الله فهو المهتدى ، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً (١)

Ce qui veut dire que l'ordre des agents répond à l'ordre des fins...

Ici la fin ne justifie nullement les moyens; ce sont les moyens qui, au contraire, seraient appelés à justifier la fin. Ce grand art pour Dieu suppose autre chose; cela suppose Dieu dans l'âme !

ويقول المتصوفة :

ليس التصوّف لبس الصوف ترقعه ولا بكاؤك إن غنّى المغنونا

---

١ – ١٧/١٨ .

« ألفن للفن أو الفن للجمهور عبث ... ولكن الشرف والفن وغيرهما فلتكن الله عز وجل ! »

والسيد ماريتين يردد هذه الرواية المدهشة المحيرة :

« ولقد عقلّم سر النجاحات الخطيرة المشرفة على الهلاك ؛ ولعلكم تعلمونه للأصدقاء . وبرنامجكم محبذ ؛ ولكن من شرفهم أن لا يخدعوا أنفسهم ... فالنضال الذي يدعون إليه شديد ؛ وسوف ينكشف عن جروح وقتلى – ولكن أتمنى أن لا تخلو الأرض من النضال ولو لم أكن استدعي إليه احداً . ثم إني أقول للأقوياء الذين استطاعوا خوض المعارك بصبر وجلد : كوسى بن عمران وعيسى ابن مريم ومحمد بن عبد الله واصحابهم الذين يريدون التقدم على المغامرة ؛ أقول لهم : ولولا نعمة الله عليكم فلا يمكنكم الحصول على النجاح ! ما يعني أن نظام الوسائل تتجاوب مع نظام الأهداف ؛ ومن هنا نفهم أن الهدف لا تسترضيه الوسائل إلا إذا كانت الوسائل من جنس الهدف ؛ وعلى هذا تبقى الوسائل كشروط لا محيد عنها في الوصول إلى الهدف ... وهذا الفن الذي ينسب إلى الله يحكي شيئاً آخر ؛ يحكي أن في الروح شيئاً من الله » .

ولا صياح ولا رقص ولا طرب ولا اضطراب كأن قد صرت مجنونا
بل التصوّف أن تصفو بلا كدر وتتبع الحقّ والقرآن والدينا

ويقول السيد مارتين تأييداً لهذه الفكرة :

Croire, il y a là un art, et le plus admirable !

Et pourtant l'art se défend mal contre un ange impur qui le gifle, et qui veut tout utiliser pour l'amour-propre, et le don même que le cœur fait de soi, et sa faiblesse même, et Dieu même.

واندفاع الشيطان وراء هذا الإيمان أخف من دبيب النمل ... بل إن اندفاع الشيطان وراء هذا الإيمان داعية من دواعي التحاسد والتباغض ... حيث أن التسارع إلى الحسد أو إلى الغضب ليس من الإيمان في شيء .

وهذا هو القرآن الكريم يدعو إلى الحبّ وإلى الحبّ المشترك ... لنشر الموآخاة حول المصالح — فيقول :

يحبّهم ويحبونه

ومن الواضح أن هذا الحب هو السبب والسبب الوحيد في إعادة الحياة إلى الغيب ...

يحب الله المؤمنين ويحبه المؤمنون ولا شيء أشمل بالخير من توسيع الصدور أمام هذه الحادثة الكبرى .

يقول السيد جاك بيرجين المنطقي الشهير تعليقاً على السيد ستاينير :

Il faudra bien que l'art examine ce phénomène de télépathie avec l'infini.

On devra dépouiller tout le matériel mis à notre disposition par la civilisation et chercher des moyens d'accéder à

« الايمان بالله فهاهنا أجمل ما يكون من فن ! والحق إن الفن يدافع عن نفسه عندما يقوم أمامه الملك الشيطاني الخبيث الذي يحاول إيذاءه والذي يستخدمه في سبيل ارضاء الهوى النفساني ويرفع عنه معنى النعمة العظمى ! » .

une masse d'informations supérieures à celle fournie par la science depuis des siècles de travail.

والسيد هانر داويد شورو يُقدر هذه الفكرة أحسن تقدير ويقول :

Si un arbre ne peut vivre selon sa nature, il dépérit; un homme de même.

Il pensait que, tel un arbre, l'homme n'était si solidement enraciné dans la terre que pour s'élever dans la même proportion vers les cieux ...

وكن رجلاً نفسه في الثرى وهامة همته في الثريا

ومهما بلغت الهمة إلى هذه الغاية ، فإن شرف العقل البشري لا يخرج عن هذا الحدّ ، حدّ الإيمان بهذا الوجود الكامل الذي تتساقط دونه المخترعات والآلات والعظمات ؛ وتتصاغر دونه المكائد والسلطات !

هذا هو القرآن الكريم يقول في ذلك :

انظر كيف كان عاقبة مكرهم (١)

ويقول :

وهو القاهر فوق عباده .

ويقول :

والله خير الماكرين ! (٢)

لا سيما وقد أخذت علماء الذرة والمخترعون تفكر في ما هو مصير المخترعات وتقول إن كل هذه الاكتشافات التي يتحير أمامها العقل البشري ليست إلاّ كمردد لذلك الصوت الخافي الذي يسكن الغيب والذي بواسطته يكون الاكتشاف ، ويكون العلم ، ويكون الاختراع ويكون كل شيء .

« ويلزم اختبار أعجوبة التجاوب مع الغيب . وذلك بتجريد الماديات التي تزودنا بها الحضارات وطلب وسائل جديدة تمكننا من الوصول إلى الأنباء السامية التي تتقاصر دونها التجارب العلمية العادية»

« وإذا لم تعش الشجرة وفق طبيعتها فانها تموت . هكذا الإنسان ...

« لا يستقر الإنسان في الأرض إلا ليرتفع إلى السموات » .

١ – ٥١/٢٧ ٢ – ٥٤/٣ ، ٣٠/٨

والدليل على ذلك أن القنبلة الذرية التي هي أعجب مخترعات هذا القرن فما هي إلاّ بعض ما ورثه الخلف عن السلف .

وهذا السيد كلود جالين يقول في كلمة جاء فيها :

Des textes indiens, vieux de quelques milliers d'années, nous entretiennent en effet d'une arme effrayante qui évoque notre propre bombe atomique : un obus étincelant qui brillait sans émettre de la fumée. Il fut lancé sur l'ennemi et un épais brouillard enveloppa tout. Des tourbillons empoisonnés se déchaînèrent. Des nuages s'élancèrent à l'assaut du ciel avec un bruit épouvantable.

Le soleil parut vaciller. Le monde entier fut brûlé par la chaleur de l'explosion comme par une effroyable fièvre.

Extérieurement, cette arme ressemblait à une flèche métallique énorme qui évoquait un gigantesque messager de mort.

ولكن انظر كيف كان عاقبة مكرهم وما كان عاقبة مكر العلماء والمخترعين والملوك من عهد الأوادم إلى الآن – إلاّ عظاماً نخرة ...

فكيف لا نؤمن مع كل ذلك بهذا الوجود الكامل المطلق ؟

وما أحسن قول المعري في هذا المقام :

قال المنجم والطبيب كلاهمـــا لا بعث بعد الموت قلت : اليكما
إن صحّ قولكما فلستُ بنـــادم أو صح قولي فالخسار عليكما

فكيف لا تؤمن به ... وهذا هو القرآن الكريم يقول :

من يحيي العظام وهي رميم ؟ قل يحييها الذي أنشأها أوّل مرة وهو بكل خلق عليم ...(١)

---

١ – ٧٨/٣٦

ولكن من هو هذا الإله ؟

يقول صهر الرسول وابن عمه :

اله لا يبلغ من حقه القائلون ، ولا يحصي نُعماه العادّون ، ولا يؤدّي حقه المجتهدون ، الذي لا يدركه بعدُ الهمم ، ولا يناله غوص الفطرة ، ليس لصفته حد محدود ، ولا نعت موجود ، ولا وقت معدود ، ولا أجل ممدود فطر الخلائق بقدرته ونشر الرياح برحمته ، ووتد بالصخور ميدان أرضه . أول الدين معرفته ، وكمال معرفته التصديق به ، وكمال التصديق به توحيده ، وكمال توحيده الإخلاص له ، وكمال الإخلاص له نفي الصفات عنه ، لشهادة كل صفة أنها غير الموصوف وشهادة كل موصوف أنه غير الصفة. — فمن وصف الله سبحانه فقد قرنه ، ومن قرنه فقد ثنّاه ، ومن ثناه فقد جزأه ، ومن جزأه فقد جهله ، ومن أشار إليه فقد حدّه ، ومن حدّه فقد عدّه ، ومن قال فيم فقد خمنه ، ومن قال علامَ فقد أخفى عنه . كائن لا عن حدث ، موجود لا عن عدم ، مع كل شيءٍ لا بمقارنة ، وغير كل شيءٍ لا بمزايلة ، فاعل لا بمعنى الحركات والآلة ، بصير إذ لا منظور اليه من خلقه ، متوحد إذ لا سكن يستأنس به ولا يستوحش لفقده .

أنشأ الخلق إنشاءً ، وابتدأه ابتداءً ، بلا روية أجالها ، ولا تجربة استفادها ، ولا حركة أحدثها ، ولا همامة نفس اضطرب فيها أجال الأشياء لأوقاتها ، ولاءم بين مختلفاتها ، وغرّز غرائزها ، وألزمها أشباحها ، عالماً بها قبل ابتدائها ، محيطاً بحدودها وانتهائها ، عارفاً بقرائنها وأحنائها ...

إن تقل كيف فقد مثّلته أو تقل أين فقد رمت الحلول
وهو لا كيف ولا أين له وهو ربّ الكيف والكيف يحول
جلّ ذاتاً وصفاتٍ وسما وتعالى قدره عما تقول

والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته !

الفهـــرس

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٥
الاسلام دين تطور	٧
الطريقة ايمان وعمل	١٨
الاسلام السنغالي بين طبقتين	٣٠
المسلم	٣٦
نجابة الولد من نجابة الوالد	٤٦
التطور	٥٤
فلسفة العمل في الإسلام	٥٧
بين الروح والمادة	٦٦
مفهوم الاسلام	٧٢
مساهمة الاسلام في تنظيم الحضارة العالمية	٩٣
اهداف الرسالة الإسلامية	١٠٨
اله واحد ، شعب واحد ، عالم واحد	١١٣